الهدى

فكرية إسلامية جامعة

العـــــدد27 شـــوال 1413/أبريـــل 1993 الثمـن 8 دراهـم

ملف العدد

التقريب بين المذاهب ممكن أم مستحيل؟

مظاهر وحدة السورة

د. أحمد أبوزيد

تأملات في حديث التلاحي

الأستاذ مصطفى بن الشيخ فضيل

أهمية المذاهب الفقهية في رعاية الوحدة الإسلامية و خطورة الآفات المحدقة بها

د. محمد سعيد رمضان البوطي

التفاهم حول أصول الفقه سبيل للتقريب

محمد علي التسخيري

الاجتهاد عند الزيدية

القاضي إسماعيل بن علي الاكوع

التقريب بين المذاهب الإسلامية

د. يوسف أحمد الشلب

جهود الأعداء في تمزيق الوحدة الإسلامية

محمد الأمين بن الشيخ بن مزيد

جهاد البناء لصروح الإيمان، أصعب من جهاد الهدم للطغيان

المحتويات

* * *

الهدى

بسم الله الرحمان الرحيم

"ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير"

سورة البقرة

الاشتراكات

عن أربعة أعداد

. في دول المغرب العربي:

- العادي : 30 درهما
- المؤسسات : 50 درهما
- التشجيعي : 100 درهم

. في الأقطار الأخرى :

- العادي : 10 دولار أمريكي
- التشجيعي: 20 دولارا أمريكيا

يرسل الاشتراك باسم مدير المجلة

على شكل حوالة بريدية

أو على الحساب البريدي

67 P ـ 22 ـ الرباط.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

أيها القاريء الكريم

في هذا العدد الذي بين يديك، محور بارز يكاد يغطي العدد كله.. محور لم يعد أمام المسلمين في كل بقاع الأرض بديل غيره، إن هم عزموا على الدفاع عن هويتهم و تاريخهم العريق، محور يعمل أحفاد السامري و ورثة الصليب ليل نهار على خلق الحواجز، و اختلاق الأسباب لمنع تحقيقه، عاجلا أو أجلا.

إنه محور التقارب بين المسلمين و الدفع نحو الوحدة الإسلامية المنشودة.

إن ما نسمعه و نراه و نقرأه عن مآسي المسلمين و آلامهم في مواقع كثيرة من العالم، لا يشكل في الحقيقة إلا نسبة قليلة من المآسي الحقيقية التي يعانون منها يوميا. وشعب فلسطين المسلم، و مسلمو البوسنة و الهرسك نموذجان بارزان لهذه الحقيقة.

إن المتأمل في الأحداث السريعة المتلاحقة بعد انهيار النظام الشيوعي، يدرك حقيقة بارزة هي أن الغرب قد بدأ بالفعل حربا جديدة ضد المسلمين عامة، و الحركة الإسلامية بصفة خاصة. إذ لم يعد للغرب من هاجس يقلق راحته و يكدر صفو حياته العفنة غير الإسلام بعقيدته و شريعته، إذ يخشى أن تعود صيحات التهليل و التكبير فينفلت الزمام من يده، ويضعف نفوذه، وتسقط هيبته.

أمام هذا الواقع، لم يبق للمسلمين إلا أن ينسوا خلافاتهم الداخلية، سياسية كانت أم فكرية، من أجل توحيد الصفوف، و الاستعداد للطواريء، مع الإخلاص لله عز وجل. و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا. إن سنة الله في هذا الكون لا تتغير، فمهما تطاول الظلم و الباطل و الفساد، و ساد البلاء و العباد، فلن يصمد أمام دعاة الحق و أنصار العدل. وصدق الله العظيم إذ يقول : "وقل جاء الحق و زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا."

الهدى

الهدى

مجلة إسلامية جامعة تصدرها جمعية جماعة الدعوة الإسلامية بفاس

المدير المسؤول : المفضل فلواتي

رئيس التحرير : محمد بريش

العنوان : حي عز الله، زنقة 2 رقم 1، شارع الموحدين. فاس

العدد السابع والعشرون

شوال 1413هـ

موافق أبريل 1993م

الثمن 8 دراهم

رقم الإيداع القانوني 82/26

التصفيف : أنفو ـ برينت ـ فاس

مطبعة فضالة . المحمدية

الافتتاحية

جهاد البناء لصروح الإيمان، أصعب من جهاد الهدم للطغيان

في أول لقاء للانصار برسول الله صلى الله عليه وسلم نستشف الهم الناصب الذي كان يؤرقهم لما أصاب قومهم من التمزق والتفرق، كما نلمح من كلامهم مقدار التلهف على وجود قائد جامع، يؤطرهم ويعبيء طاقتهم وفق منهاج واضح الأهداف والمعالم، جامع لكل الخصال الإنسانية التي تشعر المرء بعزة الانتماء اليها، والموت في سبيلها.

وبعدما آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الوفد الأول، وصدقوه، وقبلوا ما عرض من فرائض الإسلام ومبادئه، قالوا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم، بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى ان يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم الى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعز منك» [سيرة ابن هشام].

وحقق الله أمنيتهم، فأنعم عليهم بجمع الشمل، ووحدة الصف وإقامة أول دولة إسلامية نموذجية على وجه الارض، تكلأها عناية الله تعالى، وتزكيها توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلك كانت نعمة فاقت الحلم والخيال، بل فاقت الأماني التي لم يكن في متناول التصور البشري إدراكها، لانتشار الظلام الكثيف للجاهلية الجهلاء. وحيث كان الله تعالى هو صانع هذه النعمة العظيمة فقد امتن سبحانه عليهم بهذه النعمة، حيث قال: «و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» [سورة آل عمران ١٠٣].

إنها آية، وأعظم بها آية، لمن تدبرها ووعاها، وكيف لا تكون آية في حق قوم تغلب عليهم العصبية، والطابع البدوي القبلي، والنفور التام من الخضوع لقانون يقيد الحريات العمياء، ويكبح جماح الشهوات... فإذا بهؤلاء القوم يصبحون في بضع سنين أرقى الدول تشريعا، والتزاما، وطاعة، وحضارة، وإنسانية وعدلا، وصلاحا وإصلاحا.

ولقد أنعم الله تعالى على إخواننا المجاهدين الأفغان بأعظم نصر (معجزة) في أواخر القرن العشرين، حيث دكوا أعتى قلاع الكفر العقدي الممنهج، وفجروا تناقضاته، فدمدم الله تعالى عليهم بذنبهم في حق الإنسانية، فأذهب ريحهم، وطمس مرجعيتهم، التي أصبحت إرثا خالصا للتاريخ، كما ذهبت كل العقائد الفاسدة عبر التاريخ وبقي الإسلام شامخا راسخا بقوة الله تعالى، وقوة المؤمنين المجاهدين الذين يختارهم الله تعالى بفضله ليتحدوا بطش الجبابرة، ويضعوهم في مكانتهم الحقيقية من الهوان على الله، والناس، والتاريخ؛ تحقيقا لوعد الله تعالى للمجاهدين في كل زمان ومكان «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» [الروم ٤٦]، هؤلاء المؤمنون الذين يجاهدون في الله تعالى حق الجهاد، وحق الجهاد الكبير ألا يكون مشوبا بشيء من مطامع الأرض، ودفائن الهوى، وخفايا الشهوة. وإنما هدفه: الله والجنة، ولا شيء آخر لاقبل النصر ولابعده.

وإذا كان النبي سليمان عليه السلام قال عندما رأى عرش بلقيس أمامه حاضرا «هذا من فضل ربي ليبلوني آشكر أم اكفر» [سورة النمل ٤١]، والرسول عندما دخل مكة فاتحا،

دخل وهو ساجد على ناقته تواضعا وشكرا لله تعالى على هذه النعمة، أفلم يكن من الأجدر بإخواننا المجاهدين الأفغان أن يكثروا من الشكر على نعمة النصر الكبير بالاتحاد والتشاور، والعكوف على جهاد البناء والتعمير، وبناء المؤسسات التشريعية، والتعليمية، والسياسية، والاقتصادية، والعمرانية، والاجتماعية، والعسكرية... في تحاب، وتواد، وتسامح، وتقبل للرأي وإحسان الظن بأصحابه، ومحاولة التقنين للسير رغم وجود الخلاف، والبحث عن نقط التلاقي، وتأخير البث في المختلف فيه الى حين تأسيس المعالم الكبرى للدولة المنظمة، مع الاستعانة بالخبراء المخلصين من مختلف الدول الإسلامية، سواء أكانوا خبراء في الدعوة، أم الفقه، أم السياسة، أم القانون، وغير ذلك من مختلف التخصصات.

فقد اختلف المسلمون على من يلي الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم استطاعوا حسم الخلاف على إثر كلمة صادقة متبصرة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه «منا الأمراء ومنكم الوزراء» فرضوا بتقاسم المسؤولية، وأرسوا قواعد الحكم، وتمموا البناء للدولة الإسلامية، ونصرهم الله تعالى كما نصر رسوله، فامتدت فتوحاتهم في كل اتجاه تدك عروش الكفر والطغيان، وتبني صروح التوحيد والإيمان.

إن قلوب ملايين المسلمين عاشت مع جهادكم بأيديها على أكبادها لا تبخل بالتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله، مشاركة لكم في الأجر لأنهم كانوا يرون أنكم أحييتم بجهادكم عصر الصحابة، وحتى الذين لم يجدوا ما ينفقون كانوا يجاهدون بالدعاء لكم بالنصر في جوف الليل والناس نيام. فماذا تقولون لربكم يوم يسألكم عن تخييب آمال الملايين من المسلمين فيكم، بتقاتلكم واختلافكم وتنازعكم على السلطة والحكم، وحرصكم على لعلعات الدنيا الفانية، فماذا تقولون لربكم عن إطفاء شعلة الجهاد، وإيقاد فتنة الهزائم النفسية في الكثير من البلاد الإسلامية التي كانت تنتظر منكم أن تكونوا بداية الخلاص من طغيان الكفر العالمي، وتحقيق الحلم الكبير لإعادة مجد الأمة.

كان جهادكم كبيرا، وانتصاركم عظيما في أعين الدعاة وكل المحبين للإسلام من شعوب الأمة ومستضعفيها التقاة الشعث الغبر المدفوعين بالأبواب، فإذا بكم باختلافكم وتنازعكم وإراقة دمائكم الطاهرة بيد بعضكم بعضا، تصغرون هذا الجهاد، وتحجمون ذلك النصر، حتى أصبحنا نقرأ، ونرى، ونسمع في أجهزة الإعلام، والمجالس العامة والخاصة ما يندى له الجبين، ويستحيي المسلم من ذكره.

إن الأمة ليست في حاجة إلى أن تسمع حجج هذا الحزب أو ذاك في تبرير التقاتل فكل ذلك لا يخدم قضية الإسلام الكبرى ولا يعفي أحدا من المسؤولية أمام الله تعالى، ولا يخفي هوى دفينا، وعصبية منتنة، وحنينا لأفكار قبلية وحزبية، بل ولا يحجب أيادي خفية تريد تشتيت الشمل، وتمييع النصر.

إن جمع الكلمة وتوحيد الصف، والتسامي عن المطامع، وسيادة الأخوة -مهما كان الاختلاف في الرأي- وتوفير الأمن للمسلمين في دمائهم وأعراضهم، وأنفسهم، وأموالهم، هو أولى الأولويات التي تريد الأمة الإسلامية أن ترى إخواننا المجاهدين يحرصون عليها أشد الحرص. أيكون الكفار أوعى منا في هذا الباب، وهم الذين لا دين لهم ؛ يقول تعالى : «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا». و يقول صلى الله عليه و سلم : «كل المسلم على المسلم حرام : دمه، وماله، وعرضه».

فمن مبدإ : «الدين النصيحة»، نقول لإخواننا المجاهدين : إن جهادكم كان جهاد الأمة بأجمعها، فلا يجوز لكم أمام الله تعالى أن تخيبوا رجاءها، مهما كانت الأعذار والتبريرات، ولايجوز لكم بأي حال من الأحوال أن تضربوا عرض الحائط بكل الوساطات والنداءات المخلصة الصاعدة من قلوب مختلفة تتحرق شوقا لرؤية دولة إسلامية نموذجية.

لقد كان المسلمون يدعون لكم بالنصر على الأعداء، واليوم من واجب كل مسلم أن يدعو لكم بالتوفيق والسداد والانتصار على حظوظ النفس، عسى الله تعالى أن يتداركم برحمته وفضله، فيجمع شملكم، ولا يكلكم إلى نفوسكم فهو نعم المولى ونعم النصير.

مظاهر وحدة السورة

للدكتور أحمد أبو زيد

كما سبق لنا أن وعدنا القراء الكرام في العدد السابق، يسرنا أن ننشر في هذا العدد نصا من رسالة الدكتور أحمد أبو زيد حول التناسب في القرآن الكريم.

لا يتسع المجال في هذا الفصل لعرض سور بكاملها، لأن رصد ما بين الآيات، أو المعاني الجزئية في سورة بكاملها يقتضي تفصيلا لمضمونها، وبيانا لما يربط كل آية بما قبلها وما بعدها. وهذا عمل إلى التفسير العام أقرب منه إلى الدراسة الأسلوبية. ويمكن إثبات وحدة السورة بعرض بعض مظاهر التناسب التي تجمع بين أجزائها.. كالتناسب بين فاتحتها وموضوعها، والتناسب بين مطلعها وخاتمتها، والتناسب بين الحلقات القصصية وبين موضوعات السور التي تعرض فيها.

١- التناسب بين مطلع السورة و موضوعها.

استهلال الكلام بما يشير إلى موضوعه والغرض المقصود منه من أساليب التعبير البليغ، ويسميه علماء البلاغة "براعة الاستهلال"، و"حسن الابتداء"، وقالوا : "هو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله. "والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده" (١).

"وقد وجه ذلك بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن وقامت عليها الأديان، أربعة : علم الأصول، ومداره على معرفة الله تعالى وصفاته، وإليه الإشارة "برب العالمين الرحمن الرحيم"، ومعرفة النبوات، وإليه الاشارة "بالذين أنعمت عليهم"، ومعرفة المعاد، وإليه الإشارة "بملك يوم الدين".. "وعلم السلوك، وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية، وإليه الإشارة "بإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم". وعلم القص، وهو الاطلاع على أخبار الامم السالفة والقرون الماضية.. وإليه الاشارة بقوله : "صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين." فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال" (2).

*** براعة الاستهلال في سور القرآن.**

أولا : من أوضح أمثلة التناسب بين السور وفواتحها سورة النساء، فإنها لما تضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس، وهي نوعان : مخلوقة لله، ومقدرة لهم، كالنسب والصهر. ولما تضمنت أحكام النساء والميراث بالتفصيل، فقد افتتحت بقوله تعالى : "يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام" [النساء ١].

فتأمل هذه المناسبة العجيبة في الافتتاح وبراعة الاستهلال، حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما يناسب ما دارت عليه السورة من أحكام نكاح النساء وحرماته، والمواريث المتعلقة بالأرحام، فإن ابتداء هذا الأمر كان بخلق آدم، ثم خلق حواء منه، "ثم بث منهما رجالا كثيرا ونساء" (3).

ثانيا : ومن أوضح الأمثلة كذلك سورة المائدة، فإنها افتتحت بقوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود"، لأنها تضمنت بيان الشرائع ومكملات الدين، والوفاء بعهود الرسل،

وما أخذ على الأمة من المواثيق، وبها تم الدين، فهي سورة التكميل، وفيها تحريم الصيد على المحرم، وتحريم الخمر، وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين، وإحلال الطيبات، ولهذا كثر فيها ألفاظ الإكمال والإتمام (4).

ثالثا : ومن الأمثلة على ذلك سورة الأنعام، فقد قال الله في فاتحتها : "الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ". ومناسبة وصف الله في هذه الفاتحة بأنه خلق الأجرام، وجعل الظلمات والنور، دون غيرها من الأوصاف هي أن السورة تناولت ذكر عبدة الأنوار، الذين جعلوا الخير من النور، والشر من الظلمة، فذكر تعالى أنه خالق الأنوار والأجرام التي ينشأ عنها النور والظلمة، وأعاد سبحانه في ثنايا السورة ذكر ما يدل على بطلان مذهب من عبد الكواكب والنيران في قوله تعالى : "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال : ياقوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين" [الأنعام 75]. فظهر بهذا وجه مناسبة ما افتتحت به السورة من وصف الله تعالى بالانفراد بخلق السماوات والارض والظلمات والنور.

رابعا : ومن ذلك سورة ص التي افتتحت بقوله تعالى : "ص والقرآن ذي الذكر". فقد وصف القرآن في هذه الفاتحة بأنه ذو ذكر، إشارة الى أن السورة تدور، في جزء كبير منها، على الذكر والتذكير، وقد ورد فيها الأمر بالتذكر في مواضع كثيرة. قال تعالى : "اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد". [الآية 17]. وقال : "واذكر عبدنا أيوب.." [الآية 41]. وقال : واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب". [الآية 45].

وقال : "إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار". [الآية 76].

وقال : "واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل". [الآية 48].

وقال : "هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب". [الآية 49].

وقال : "إن هو إلا ذكر للعالمين". [الآية 87].

ومثل هذا ما في سورة مريم، فإنها افتتحت بقوله تعالى : "كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكرياء". وفي هذه الفاتحة جاء لفظ "ذكر" مضافا إلى الرحمة وفيه إشارة الى أن التذكير من مقاصد السورة، وقد ورد فيها الأمر بالتذكر عدة مرات. قال تعالى : "واذكر في الكتاب إبراهيم" [الآية 41]. "واذكر في الكتاب موسى" [الآية 51]. "واذكر في الكتاب إسماعيل." [الآية 54]. "واذكر في الكتاب إدريس" [الآية 56].

تلك جملة من الأمثلة التي تبين أن هناك تناسبا بين السورة وبين فواتحها، وقد يكون هذا التناسب واضحا، وقد يكون لطيفا لا يستخرج إلا بالتدبر.

وقد تكون فاتحة سورتين فأكثر متشابهة، ينحصر الاختلاف بينهما في كلمة واحدة، وعند البحث والتدبر يتضح أن هذا الاختلاف المحدود، يرجع إلى وجه من أوجه التناسب بين فاتحة كل سورة وموضوعها. وأقرب مثال على هذا قوله تعالى في فاتحة سورة لقمان : "الم. تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين". وقوله في فاتحة سورة يونس : "الر. تلك آيات الكتاب الحكيم". وقوله في فاتحة سورة يوسف : "الر. تلك آيات الكتاب المبين". فوصف "الكتاب" في الأوليين بالحكمة، ووصفه في الأخرى بصفة "المبين".

أما وصفه بالحكمة في سورتي لقمان ويونس، فلأنهما تشابهتا في عرض الآيات الدالة على عظيم حكمة الله، وإتقان صنع الأشياء. أما سورة لقمان فقد وردت فيها الإشارة الى خلق السموات بغير عمد، وورد فيها قوله تعالى : "ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة" [الآية 20]. وقوله : "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت" [الآية 34]. وفي

هذه السورة أيضا ذكر ما منح لقمان من الحكمة وما انطوت عليه قصته من الحكمة، وما صدر عنه من حكمة في وصاياه لابنه. ولم تخرج آي هذه السورة عن هذا الموضوع.

وكذلك سورة يونس دارت حول آيات حكمة الله تعالى في تدبير الكون، وحياة الناس. جاء فيها : "إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام" [الآية 3]. وفيها : "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق" [الآية 5]. ثم قال تعالى : "إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون" [الآية 6]. ولم يتخلل هذه السورة ما يخرج عن باب الاعتبار من حكم أو قصص. فهذا وجه المناسبة في وصف الكتاب في مطلعي هاتين السورتين بالحكمة.

أما مناسبة وصفه في فاتحة سورة يوسف "بالمبين" فلان هذه السورة لم تتضمن غير قصة يوسف، وبيان ما جرى له مع أبيه وإخوته، وامتحانه بإلقائه في الجب، وبيعه بثمن بخس، وابتلائه بامرأة العزيز وبالسجن، وكل ذلك بيان لقصته، لذلك وصف الكتاب في فاتحتها "بالمبين".

البراعة في الاستهلال بالحروف المقطعة.

لم تتفق كلمة العلماء على رأي في المراد بالحروف المقطعة التي وردت في فواتح بعض السور، فذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى. والذي يعنينا هنا من تلك الحروف، ليس هو تحديد المراد بها، وإنما وجه اختصاص كل سورة بما افتتحت به، ووجه التناسب في ذلك.

لم تكن هذه النقطة موضع اهتمام العلماء والمفسرين، فلم نجد في توضيحها إلا إشارات قليلة، منها ما أشار إليه ابن الزبير الغرناطي عندما قال : "إن هذه السور إنما وضع في كل سورة منها (يعني من تلك الحروف) ما كثر ترداده فيما تركب من كلمها... وقد اطرد هذا في أكثرها فحق لكل سورة ألا يناسبها غير الوارد فيها، فلو وضع في موضع "ق" من سورة "ق" حرف "ن"، لم يمكن لعدم المناسبة المتأصل رعيها في كتاب الله تعالى" (5). انطلق ابن الزبير من هذا المبدإ، فأخذ يبحث في أوجه المناسبة بين هذه الفواتح وبين سورها. ومن توجيهاته القريبة مما مر في هذا الفصل ما ذكره في فاتحتي كل من سورة لقمان وسورة يونس.

أما الأولى فإنها افتتحت ب"الم"، لأنها "تضمنت من التنبيه والتحريك للاعتبار، إفصاحا وإيماء للمؤمن والكافر، ما لم تتضمن سورة يونس على طولها، وإن كانت آياتها كلها -كما تقدم- آي اعتبار، إلا أنها ليست كالوارد من ذلك في سورة لقمان. فمن التنبيه المتضمن تقريع من عبد غير الله سبحانه : "هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه" [الآية 11]. ولا تجد مثل هذا إلا حيث تراد المبالغة في توبيخ من عبد غير الله. ومن التنبيه الوارد فيها للمؤمنين ولغيرهم قوله تعالى : "ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض.. " [الآية 20]. وقوله : "ألم تروا أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل" [الآية 29]. وقوله : "ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله" [الآية 31]، فورد هذا التنبيه بهمزة التقرير، و"لم" الجازمة.. وتكررت في هذه السورة في ثلاث آيات. ولم تقع متكررة في شيء مما أتى بعدها، ولا مما قبلها، مما يماثلها في عدد كلمها، ولا فيما هو على الضعف منها، إلا في سورة "فاطر" وهي أطول منها.

أما سورة يونس فهي مبنية على التعريف بربوبية الله تعالى. وقد ابتدأ ثالثة آياتها بقوله تعالى : "إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام". ثم تكرر فيها اسم "الرب" في بضعة عشر موضعا.. ولم يرد من هذا في سورة لقمان إلا قوله تعالى : "يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا" [الآية 54]. ثم إنه تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها الراء مائتا كلمة وعشرون كلمة أو نحوها. فلمجموع ما ذكر ورد "الم" في فاتحة سورة لقمان و"الر" في فاتحة سورة يونس (6).

وافتتحت سورة "ق" بهذا الحرف لما تكرر فيها من

الكلمات بلفظ القاف، وهي كثيرة، ولسر آخر : وهو "أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح" (7).

تلك أمثلة من الإشارات التي وردت في مصادر الدراسات القرآنية القديمة عن أوجه التناسب بين السور وبين الحروف المقطعة التي وردت في فواتحها. وهي إشارات متفرقة لا تكفي للكشف عن أسرار الفواتح في سائر السور. وعلى أي فإن التناسب بين فواتح السور سواء أفتتحت بالحروف المقطعة أم لا حقيقة ثابتة، وهي من أوجه بلاغة القرآن، ومن مظاهر وحدة السور وتناسب معانيها.

2. **التناسب بين مطلع السورة وختامها.**

من مظاهر وحدة السور، وتناسب أجزائها مناسبة مطلعها لخاتمتها. ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما لوحظ في سورة القصص التي بدئت بقصة موسى ونصرته لرجل من شيعته، وقوله عليه السلام. "فلن أكون ظهيرا للمجرمين" [الآية 17]. وبذكر خروجه من وطنه. وختمت بأمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن "لا يكون ظهيرا للكافرين" [الآية 86]، وبتسليته عن إخراجه من مكة، ووعده بالعودة إليها. وقد تقدم في مطلع السورة أن الله وعد أم موسى برد ابنها إليها بعد إلقائه في اليم. قال تعالى : " إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين" [الآية 7].

ولحظ الزمخشري أن فاتحة سورة "المؤمنون" مناسبة لخاتمتها. فقد جعل الله فاتحتها. "قد أفلح المؤمنون" وجعل خاتمتها : "إنه لا يفلح الكافرون"، فقابل بين المطلع والختام بالإيجاب والسلب (8).

وذكر تاج القراء الكرماني في "عجائب القرآن" أن سوررة "ص" بدئت بالذكر وختمت به. قال تعالى : "ص والقرآن ذي الذكر" وقال في ختامها : "إن هو إلا ذكر للعالمين".

وبدئت سورة القلم بقوله تعالى : "ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون". وختمت بقوله : "ويقولون إنه لمجنون، وما هو إلا ذكر للعالمين".

ويراعى في خاتمة السورة أن تكون مناسبة لموضوعها، أو لأهم ما تناولته من المعاني والأغراض. ومن أوضح ذلك خاتمة سورة البقرة : "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمومنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله. وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها، ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين" [الآية 285-286].

هذا ختام السورة الكبيرة، وإنه ليمثل تلخيصا وافيا لأعظم قطاعات السورة، تلخيصا يتناسب مع موضوعاتها وجوها وأهدافها : لقد بدئت السورة بذكر أوصاف المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.. والذين يؤمنون بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله.. ووردت في ثناياها إشارات إلى الإيمان بالرسل جميعا. وها هي ذي تختم بقوله تعالى: "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله". وقد اشتملت السورة على الكثير من تكاليف الأمة المسلمة وتشريعاتها، وفي ختامها يجيء قوله تعالى : "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت". وقد تضمنت السورة بعض قصص بني إسرائيل وما قابلوا به نعم الله من جحود، وما كلفهم من كفارات، وفي ختامها يرد ذلك الدعاء الخاشع على ألسنة المؤمنين : "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا.."

وختمت سورة آل عمران بقوله تعالى : "ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" [الآية 200]. وهذا ختام يناسب محور السورة الأصيل، وموضوعاتها البارزة، ويتسق معها كل الاتساق. فهو نداء للمؤمنين بالصبر

والمصابرة والمرابطة والتقوى. وسياق السورة حافل بذكر الصبر، وبذكر التقوى، وبالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة، ودفع الكيد وعدم الاستسلام لدعاة الهزيمة والبلبلة. وتضمنت تفصيلا عن غزوة أحد، والدروس التي تستخلص منها. ومن ثم ختمت بالدعوة الى الصبر والمصابرة والمرابطة.

3. **التناسب بين الحلقات القصصية وموضوع السورة.**

من المؤكد أن القصص إنما يرد في سياق السورة ليؤدي وظيفته فيه. وقل أن ترد قصة بكل حلقاتها في سورة واحدة، وإنما يأتي في سياق كل سورة من حلقاتها ما يناسب موضوع السورة ومحورها وأهدافها. وهذا مظهر آخر من مظاهر وحدة السورة وتناسب معانيها. ومن آثار خضوع القصة في القرآن لوحدة السورة، عدم الالتزام بالترتيب الطبيعي لحلقات القصة، فمرة تعرض حلقة من أول القصة، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تعرض بكاملها. كل ذلك بحسب ما يقتضيه مقصد السورة وموضوعها. ولا نستطيع أن نقدم هنا عرضا وافيا للقصص القرآني الوارد في كل سورة. وحسبنا أن نعرض ما ورد فيه من حلقات قصة إبراهيم عليه السلام، في محاولة لبيان التناسب بينها وبين السياق الذي وردت فيه من كل سورة.

وردت حلقات من هذه القصة في عدد من السور: في البقرة، والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، والشعراء، والعنكبوت، والصافات والذاريات.. ولا يعرض منها في كل مرة إلا ما يتفق وسياق السورة وموضوعها.

عرضت في سورة البقرة حلقة بنائه البيت هو وإسماعيل، ودعائه أن يجعل الله البلد الحرام آمنا، وإعلانه أن وراثة البيت ووراثة بانيه إنما هي للمسلمين الذين يتبعون ملته. جاءت هذه الحلقة في سياق الحديث عن بني إسرائيل وأهل الكتاب عموما. وكان أهل الكتاب يرجعون بأصولهم الى إبراهيم عن طريق إسحاق، ويعتزون بنسبتهم إليه. ومن ثم يحتكرون القوامة على الدين والهدى. وتقرر هذه الحلقة حقيقة دين إبراهيم، وهي التوحيد الخالص، لإبراز ما بين دين إبراهيم وبين ما عليه أهل الكتاب من العقائد المشوهة المنحرفة من فرق. وقد تكرر لفظ الإسلام والمسلمين في ابتهالات إبراهيم الواردة في هذه الحلقة عدة مرات. وذلك للتعريض بأهل الكتاب الذين انحرفوا عن دينه، ومن تلك الابتهالات: "ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك"، وقال تعالى: "إذ قال له ربه أسلم. قال أسلمت لرب العالمين، وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون". وقال: ".. نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون" [الآيات 128، 131، 132، 133].

وعرضت في هذه السورة كذلك حلقة محاجته للملك الكافر في صفة الله تعالى الذي يحيي ويميت، ويأتي بالشمس من المشرق، وتحديه للملك أن يأتي بها من المغرب، فبهت الذي كفر. كما عرضت فيها حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وأمره بذبح أربعة من الطير، وتوزيع أشلائها على الجبال، ثم إحياؤها بين يديه.. جاءت هاتان الحلقتان في معرض الحديث في السورة عن آيات الله وقدرته على الإماتة والإحياء [الآيات 258-260].

وعرضت في سورة الأنعام حلقة بحثه عن ربه، واهتدائه إليه، بعد تأمل في النجوم والقمر والشمس، وتتبع مشاهد الكون. وكان ذلك في سياق موضوع السورة الذي يدور حول العقيدة، وآيات الله في الكون ودلالتها على الصانع المبدع الذي لا شريك له [الآيات 75-79].

وعرضت في سورة هود حلقة تبشيره بإسحاق وكان ذلك في سياق قصة لوط، ومرور الملائكة المكلفين بتدمير قريته، في طريقهم بإبراهيم. وفيها تبدو رعاية الله للمختارين من عباده وتدمير الفاسقين [الآيات 69-76].

وعرضت في سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت الحرام لمن أسكنه من ذريته بواد غير ذي زرع. وحمد ربه. وطلبه أن

يجعله مقيم الصلاة هو وذريته. وكان سياق السورة كله يتناول عرض أمة الرسل الذين أرسلوا جميعا برسالة واحدة هي التوحيد. وعرض سياق هذه السورة المكذبين بأمة الرسل صفا واحدا كذلك. وكأنما الرسالة شجرة ظليلة في هجير الكفر وصحراء الجحود [الآيات 36-41].

وعرضت في سورة الحجر الحلقة التي عرضت في سورة هود مع شيء من التفصيل في ذكر رحمة الله بعباده المؤمنين، وتعذيب العصاة المذنبين [الآيات 51-60].

وعرضت في سورة مريم حلقة دعوة إبراهيم في رفق لأبيه، وغلظة أبيه عليه، واعتزاله لأبيه وقومه، وهبة إسماعيل وإسحاق له. وذلك في سياق هـذه السورة التي تعرض رعاية الله للمصطفين من عباده، و جوها الذي تظلله الرحمة والود واللين [الآيات 41-50].

وعرضت في سورة الأنبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه، وزرايته على الأصنام وتحطيمها، وإلقائه في النار التي كانت بردا وسلاما عليه بأمر الله.. وذلك في سياق استعراض أمة الرسل، ورعاية الله لهذه الامة [الآيات 51-73].

وعرضت في سورة الشعراء حلقة إرسال إبراهيم الى قومه، وحواره معهم حول العقيدة، وإنكار الآلهة الباطلة. وذلك في سياق الحديث عن المشركين، وندمهم يوم القيامة على ما كانوا عليه من الشرك. وعن مقومات عقيدة التوحيد، وفساد عقيدة الشرك [الآيات 69-89].

وعرضت في سورة العنكبوت حلقة من هذه القصة وهي حلقة دعوة إبراهيم قومه، وما حاول من هدايتهم ، وما بذل لهم من النصح، وما قدم لهم من الحجج : "فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه" [الآيات 16-27]. وفي هذه الحلقة يبدو سوء الجزاء وطغيان الضلال. وقد ورد هذا في سياق عرض نماذج من الفتن التي اعترضت دعوة الإيمان في تاريخ البشرية الطويل، وصور من رعاية الله الشاملة لرسله وللمؤمنين.

ووردت حلقة جديدة من هذه القصة في سورة الصافات، هي الحلقة التي تحدثت عن رؤيا إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه. وإسلامهما في ذلك لله، وإقبالهما على إنفاذ الذبح [الآيات 83-113]. وردت هذه الحلقة في سياق موضوع هذه السورة التي تستهدف -كسائر السور المكية- بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله، وتطهيرها من التعلق بالأبناء ومن محبتهم التي تزاحم محبة الله في قلب المؤمن. ويبرز الإيمان بالله في أبرز صوره وأرقى مراتبه، في هـذه الحلقة من قصة إبراهيم، لا يشوبه مثقال ذرة من الشرك، ولا يزاحمه في قلبه شيء.

ووردت حلقة من هذه القصة في سورة الذاريات التي استهدفت بافتتاحها وسياقها ومعانيها ربط القلب البشري بالسماء، وتعليقه بغيب الله المكنون، وتخليصه من أسر الأسباب الأرضية، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله، والتعلق بـه وحده. وتكررت الإشارة إلى هذا المعنى في سياق السورة، إما مباشرة كقوله سبحانه : "وفي السماء رزقكم"، وقوله : "إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين"، وقوله : "ففروا إلى الله.."، وقوله : "ما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون".

ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئـه القدر عنه هو أكثف العوائق وأشدها. فقد عني في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره، وتعليق القلب بالسماء في شأنه. وفي هذا السياق يرد من قصة إبراهيم حلقة مناسبة هي الحلقة التي تصف جوده وسخاءه، وهو يقري ضيوفه القلائل بعجل سمين، ويتلقى هو وامرأته البشرى بغلام عليم على غير توقع ولا انتظار. وفي هذه الحلقة نموذج لسلوك المؤمن الذي لا يتعلق في شأن الرزق بالأسباب الأرضية وحدها [الآيات 24-37].

[تتمة هذا المقال في آخر الصفحة 11]

تأملات في حديث التلاحي

للأستاذ مصطفى بن الشيخ فضيل

أخرج البخاري -رحمه الله- في صحيحه، كتاب فضل ليلة القدر، باب رفع معرفة ليلة القدر لتلاحي الناس، عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال: **"خرج علينا النبي -صلى الله عليه وسلم- ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيرا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة."**

هذا الحديث الذي ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يدخل ضمن التوجيهات النبوية السديدة التي تشكل أسس الرسالة. وهو حديث يدل على حكمة النبي صلى الله عليه وسلم حين مباشرته للعملية التربوية للجماعة المسلمة.

وسنحاول أن نتناول هذا الحديث من حيث طريقة سوق البخاري له، وما يدل عليه ذلك من فقهه، رحمه الله تعالى، ثم من حيث المعاني التي يضمها هذا الحديث، مع التركيز على بعضها خاصة.

أولا: لقد أورد البخاري هذا الحديث في سياق الأحاديث التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم في تعيين ليلة القدر، غير أنه أفرد هذا الحديث بباب خاص، وجعل له عنوانا استخرجه من بعض ألفاظ الحديث، وكأنه -بذلك- يبين مقصده من إفراده بهذا الباب.

فهذا الحديث فيه -أيضا- كلام عن تعيين ليلة القدر، ولكنه لم يشر إليه في عنوان الباب، وإنما قال: «باب رفع معرفة ليلة القدر لتلاحي الناس». وهذا يدل على أن البخاري رحمه الله قصد إلى بيان السبب الذي من أجله رفعت معرفة ليلة القدر. ولذلك قال ابن حجر: "قوله «باب رفع معرفة ليلة القدر لتلاحي الناس»، أي بسبب تلاحي الناس، وقيد الرفع ب«معرفة» إشارة الى أنها لم ترفع أصلا ورأسا" (1). وظاهر كلام البخاري يدل على أن رفع معرفتها كان عقوبة على التلاحي من حيث إنه ينافي الحال التي يناسب فيها الإخبار عن ليلة عظيمة القدر، وأنه لا أنسب لهذا الإخبار من حال الخشوع والسكينة وانتظار فضل الله الكريم مع شدة الترقب لما يوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والاشتغال به عما سواه.

ومما يدل على معنى كلام البخاري ما رواه مسلم من حديث -فيه بعض طول- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه: "...أيها الناس إنها كانت أبينت لي ليلة القدر، وإني خرجت لأخبركم بها، فجاء رجلان يحتقان، معهما الشيطان فنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر..." الحديث (2).

قال النووي: "قوله صلى الله عليه وسلم: «رجلان يحتقان» معناه: يطلب كل واحد منهما حقه ويدعي أنه المحق، وفيه أن المخاصمة والمنازعة مذمومة وأنها سبب للعقوبة المعنوية" (3).

ورواية مسلم هذه تفسر رواية البخاري عن التلاحي، وأنه هو المخاصمة والمنازعة" كما قال ابن حجر (4).

وهكذا يتبين أن الاختلاف عندما يتعدى حده الطبيعي فيصير نزاعا وخصاما هو اختلاف مذموم، وأن الاختلاف من هذا النوع يكون سببا في حرمان الأمة -فضلا عن أهل الاختلاف أنفسهم- من نعم كثيرة كبيرة.

ثانيا : مما يضمه هذا الحديث من معان يمكن أن تكون بمثابة قواعد في تربية الجماعة المسلمة :

1ـ توجيه الصحابة رضوان الله عليهم إلى معرفة أسباب الحصول على النعمة والحرمان منها، وأنها تحتاج في نزولها إلى الشخص المناسب والجماعة المناسبة والحالة المناسبة كذلك. والذي يدل عليه الحديث دلالة واضحة أن التلاحي لم يكن مناسبا للحالة التي يستحقها تنزل نعمة كبيرة في قدر ليلة القدر.

2 ـ التنبيه على أن تصفية الأجواء ودرء الخلاف يعد من أوليات مقاصد الإسلام وأن وجوب الحرص على تماسك الكيان الاجتماعي لا يقل أهمية عن الترغيب في وسيلة من الوسائل المعينة على الارتقاء في مدارج التعبد الفردي، ولو كانت من جنس ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

3 ـ التنبيه على قدرة الله عز وجل على سلب النعم متى شاء، وذلك يستوجب إحاطتها بعوامل البقاء لتستمر.

4 ـ التنبيه على خطورة الخصام وأن أثره لا ينحصر في الذين قام بينهم الخلاف، بل إنه قد ينسحب على باقي أفراد المجتمع إذا لم يقوموا بواجب الصلح والنصرة العادلة.

5 ـ في هذا الحديث أسلوب من أساليب التربية النبوية الحكيمة حيث انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفوس صحابته من حال التأديب الحكيم والتأنيب غير المباشر الذي كاد يصل بهم إلى حد اليأس بقوله :" فرفعت" إلى حال الاستبشار بقوله : "وعسى أن يكون خيرا لكم فالتمسوها" ولذلك فإن العلماء قالوا بأن الضمير في "رفعت" يرجع إلى معرفة ليلة القدر. وفي "فالتمسوها" يرجع إلى ليلة القدر نفسها.

وسيرة الصحابة رضي الله عنهم تجعلنا نتصورهم –في حال رفع ليلة القدر أصلا– راجعين إلى بيوتهم منكسرين محزونين باكين. ولكن الله تعالى كان رحيما بصحابة نبيه صلى الله عليه وسلم فبشرهم بعد حرمان.

ومن لطائف التربية في هذا الحديث ما يلاحظ من الجمع بين المنع والعطاء وبين العقوبة والثواب وهو جمع يدل على علم بنفوس المخاطبين ورحمة بهم.

وخلاصة الكلام في هذا المقام ذم الخلاف المؤدي إلى الخصام وأنه سبب في حرمان الأمة المسلمة من كثير من النعم. و إذا جاز لنا القياس، فإن النصر نعمة كبيرة غير أنها قد ترفع أو تتأخر بسبب النزاع وهذا بعض ما يدل عليه قوله تعالى : «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين» [الأنفال الآية 47].

الهوامش.

(1) فتح الباري : 4/267-268.

(2) صحيح مسلم بشرح النووي 8/63 كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها.

(3) المصدر السابق.

(4) فتح الباري 4/268 .

[تتمة مقال : مظاهر وحدة السورة]

بهذه الحلقة نكون قد أنهينا استعراض حلقات قصة إبراهيم كما وردت في مواضعها من القرآن الكريم. ومن هذا العرض الموجز يتضح ما بين كل حلقة منها وبين سيا قها من السورة التي عرضت فيها من التناسب. وليس هذا أمرا مقصورا على قصة إبراهيم وحدها، بل هو قاعدة تعم سائر القصص القرآني. ويغنينا ما رأيناه في حلقات قصة إبراهيم من اطراد التناسب مع موضوعات السور عن عرض باقي القصص.

الهوامش.

(1) الإتقان في علوم القرآن 2/106.

(2) نفسه 2/106-107.

(3) نفسه 2/112.

(4) نفسه 2/112.

(5) ملاك التأويل 1/176-177.

(6) نفسه 1/609-612.

(7) بدائع الفوائد 3/173.

(8) الكشاف 3/45.

أهمية المذاهب الفقهية في رعاية الوحدة الإسلامية وخطورة الآفات المحدقة بها

د. محمد سعيد رمضان البوطي

يتضمن هذا البحث بيان مدى أهمية المذاهب الفقهية في حماية الوحدة الإسلامية، وذلك على النقيض مما يتصوره بعض الناس. كما يتضمن بيان الآفات الخطيرة التي لحقت المذاهب الفقهية في أزمنة لاحقة، فعاقتها عن مواصلة دورها الإيجابي في رعاية هذه الوحدة وأهم ما يجب على المسلمين فعله لإبعاد هذه الآفات عن حظيرة الاجتهاد الفقهي خصوصا، و الإسلامي عموما.

وتتسلسل نقاط هذا البحث طبق الترتيب التالي :

١- مقدمة في بيان أن الوحدة الإنسانية هي أهم الأهداف التي تعبد الله عباده بالإسلام من أجلها.

٢- معنى المذاهب الفقهية.

٣- عوامل نشأتها.

٤- تاريخ نشأة المذاهب الفقهية.

٥- الاختلافات الفقهية كانت ولاتزال اختلافات تعاونية.

٦- الآفات التي لحقت بالمذاهب الفقهية وهي :

أ- تسليط قدر كبير من آثار المذاهب الاعتقادية والسياسية عليها.

ب- إخضاع ضوابط الرواية وفن الجرح والتعديل لتيار بعض المذاهب الاعتقادية والسياسية.

ج- تعصب كثير من أتباع المذاهب الفقهية لمذاهبهم.

٧- كيف نعالج هذه الآفات.

مقدمة : الوحدة الانسانية أهم الأهداف التي جاء الإسلام من أجلها.

لا نزاع في أن وحدة الأسرة الإنسانية، والقضاء على عوامل التشريد والتفرق فيها، من أهم الأهداف التي جاء الإسلام لتحقيقها، على صعيد الحياة الدنيوية هذه.

ولعل من أبرز ما يجسد هذا الهدف ويؤكده، كلمة «الحبل» التي عبر بها القرآن عن الإسلام وأمره الناس جميعا بالاعتصام بهذا الحبل الذي يمنعهم من التفرق بمقدار ما يمنعهم في الوقت ذاته من الضياع والهلاك، وذلك في قوله عز وجل «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا». والقرآن مليء بعد ذلك بالآيات التي تنهى عن التفرق والشقاق وتوصي بالوحدة والاتفاق، و تهيب بالناس -كل الناس- أن لا يكونوا كالجماعات والأقوام الذين خلوا من قبلهم، إذ أعرضوا عن السبيل العريضة التي توحدهم وتجمع شملهم، واستعاضوا عنه بسبل متعرجة شتى، تفرقوا في متاهاتها، حيث أسلمتهم بدورها إلى أودية الضياع.

ألم يقل : «..ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات» [آل عمران : ١٠٥]. أو لم يقل أيضا «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» [الأنعام : ١٥٣]. ولكن ما هو المعنى المحدد للوحدة التي جاء الإسلام لتحقيقها

ثم لحمايتها ؟

إن من المهم جدا أن نطرح هذا السؤال : ولعل من أهم ما يحوجنا إلى طرحه، أن الناس كانوا، ولا يزالون، على الرغم من الحقيقة الإنسانية الواحدة الجامعة لهم، مختلفين في كثير من مشاربهم وعاداتهم وأساليب تعاملهم مع الحياة ومرافقها. بل كانوا، ولا يزالون، مختلفين في لغاتهم وألوانهم وانتماآتهم العرقية والقومية. من أجل هذا، كان لا بد من أن نتبين الحجم المحدد المطلوب لهذه الوحدة التي جاء الاسلام لإقامتها ثم لحمايتها وتغذيتها، بحيث ندرك أن الخطب فيما وراء هذا الحجم يسير، وأن الوحدة إذا تم نسيجها داخل حدود هذا الحجم، عاد الاختلاف فيما وراء ذلك صورا من التعدد الهامشي لاضرر فيها ولا خطر منها.

إن الوحدة المطلوبة هنا، هي وحدة الرؤية العقلية إلى الكون والإنسان والحياة، بحيث يصدر الناس جميعا من عقيدة واحدة بحقيقة الإنسان والحياة التي يتمتع بها وبالمكونات التي من حوله. وليس المعني بحبل الله في الآية السابق ذكرها إلا هذه العقيدة العقلية الشاملة، أما إضافة الحبل إلى الله، فلأن الذي عرفنا بهذه الحقائق الثلاث على وجهها الصحيح إنما هو الله عز وجل، بل لا يملك أحد غير الله عز وجل الذي تفرد بخلق كل شيء، أن يعرفنا بها ويبصرنا بهويتها.

ومن المعلوم أن الناس إن صدروا عن عقيدة واحدة في فهم هذه العناصر الثلاثة الجامعة لمعنى الكون، لابد أن يتفقوا على أصول واحدة في التعامل مع الكون على أساسها. وهذه الأصول هي التي تشكل بدورها نسيج وحدتهم وتضامنهم. ولاشك أن من أبرز هذه الأصول الأخوة الإنسانية، وعبودية الإنسان لله، ووحدة المبدأ والمصير في حياة الإنسان.

فإذا اجتمع شمل الأسرة الإنسانية تحت مظلة هذه الأصول، فمن حق أفرادها، بل من مقتضيات الفطرة في حياتهم أن تتلون منهم الخبرات والعادات وأساليب الحياة تماما كما تتفاوت منهم القدرات وتتعدد الألوان وتتنوع اللغات. ولولا هذا التلون والتعدد لما وجدت فيهم عوامل التساند والتعاون التي هي بدورها الغذاء الذي لابد منه لتنمية واقع الوحدة والتآلف والتضامن. ومن هنا ندرك أن كثيرا من مظاهر الاختلاف والتعددية في حياة المجتمع الإنساني إن هو إلا روافد وعوامل أساسية لتعميق معنى الوحدة والتضامن بين أفراده.

ترى هل تعد المذاهب الفقهية التي نراها اليوم في المجتمعات الإسلامية، واحدة من هذه المظاهر التي تغذي في الحقيقة والمآل نسيج الوحدة الإسلامية في حياة المسلمين؟

ولكي يأتي الجواب مدروسا ومدعوما بالمنطق، يجب أن نعلم أولا معنى المذاهب الفقهية، وعوامل نشأتها، ومن ثم تاريخ نشأة هذه المذاهب. فهذه ثلاث نقاط يجب أن نمهد بها للإجابة عن هذا السؤال.

معنى المذاهب الفقهية :

المذاهب الفقهية حصيلة اختلاف الفقهاء في مسائل اجتهادية غير قاطعة الثبوت أو الدلالة، في نطاق الأحكام السلوكية. وهذا يعني أن في مصدري الكتاب والسنة ما هو غير واضح الدلالة على المعنى المطلوب، بل يحمل في طيه أكثر من احتمال واحد. كما أن في السنة ما هو غير قطعي الثبوت، بل تطوف به احتمالات الصحة والحسن والضعف.

ثم إن هذا التعريف يوضح أن هذه الخلافات الفقهية التي هي مادة المذاهب الفقهية لا علاقة لها، من قريب أو بعيد، بالأصول الاعتقادية المتعلقة بحقيقة الكون والإنسان والحياة، أو بما يتفرع عن معرفة هذه الحقائق الثلاث، من سلسلة المعتقدات الإسلامية التي يتكون من مجموعها معنى الإيمان والإسلام.

نعم، إن لها علاقة بهذه الأصول الاعتقادية، ولكنها لا تزيد على أن تكون تحقيقا لمناطاتها، واستظهارا لكيفية تطبيقاتها.

وبيان ذلك أن اليقين بوجوب الخضوع للشريعة الإسلامية من أصول المعتقدات الدينية التي لا خلاف فيها. أما تحديد الشريعة وإبرازها من خلال نصوصها ومسائلها الجزئية، فهو الفقه الذي قد تتسرب إلى بعض مسائله عوامل الخلاف والاحتمال. وعلى سبيل المثال : إن اليقين بوجوب تجنب البدع واحد من أصول المعتقدات الدينية التي لاخلاف فيها، أما تحديد الجزئيات التي ينطبق أو لا ينطبق عليها حد البدعة، فيدخل في تحقيق المناط، ومن ثم ففيها ما قد يكون انطباق معنى البدعة عليه فيه شيء من الارتياب والاحتمال.

ولكن لماذا كان في النصوص الفقهية في القرآن والسنة، ما قد يحمل أكثر من دلالة واحدة، ومن ثم كان فيه مجال واسع للاجتهاد والاختلاف ؟

الحكمة من ذلك أن يأتي مجموع الشرائع السلوكية ذا وجوه وطرق متعددة، في استيعاب حاجات الناس ومصالحهم مهما تنوعت هذه الحاجات والمصالح، ومهما تطورت مع تطور الأزمان، وقد غدت هذه الحكمة واضحة جلية من كثرة ما تناولتها الدراسات والأبحاث المتنوعة.

عوامل نشأة المذاهب الفقهية :

يتضح مما ذكرناه في تعريف المذاهب الفقهية أن العامل الأساسي لها، وهو اختلاف الفقهاء، ينبغي أن يكون موجودا في حياة المسلمين الفقهية منذ عصر النبوة. وهذا هو الواقع المعروف فعلا. وإليكم بيان ذلك :

لقد كان الوحي هو الحاجز الوحيد الذي يمنع تسرب الخلاف إلى الصحابة في استنباط الأحكام الفقهية من بعض النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية، حتى إذا صادف أن مرت بهم ظروف أحوجتهم إلى معرفة حكم من الأحكام الشرعية التي لم يتضح وجه الدلالة عليها بيقين ، وحيل بينهم وبين معرفته تلقيا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لجأوا إلى إعمال النظر والاجتهاد في فهمه، حسب إمكاناتهم وقدراتهم العلمية. فربما اتفقوا و ربما اختلفوا في الاجتهاد و الفهم. و الاختلاف هو الغالب. وقد كان لابد أن يعرضوا اجتهاداتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد انقشاع تلك الظروف عنهم. فلم نسمع ولم نعلم قط أن رسول الله عنفهم أو عاتبهم على ذلك الاجتهاد والاختلاف، بل سكت سكوت المؤيد لسعيهم الذي بادروا إليه، بقطع النظر عن تأييده أو عدم تأييده للنتائج التي انتهوا إليها.

ولعلنا جميعا نذكر أن من أبرز الشواهد الواقعية على ما نقول، حيرة نفر من الصحابة في فهم المعنى المراد من قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه يوم بني قريظة : «ألا لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة». إذ كانت الشمس أوشكت على المغيب وهم لم يصلوا العصر بعد، والطريق بينهم وبين بني قريظة ما يزال بعيدا. ترى أيطلب منهم رسول الله في هذه الحال أن يتركوا صلاة العصر ولو خرج وقتها، حتى يصلوا إلى بني قريظة فيصلوها هناك كما أمرهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم المطلوب منهم أن يوجدوا في بني قريظة خلال وقت العصر، بحيث إذا حيل بينهم وبين هذا المطلوب، لم يكن من فرق بين أن يصلوا العصر في أي الأماكن شاءوا، و لا شك أن المطلوب عندئذ هو الرجوع إلى الأصل وأداء صلاة العصر في ميقاتها المشروع؟

إن المعنيين، كما نلاحظ، واردان ومحتملان. والمصير الوحيد الذي يملكه أولئك النفر الذين تخلفوا في الطريق هو الاجتهاد في بلوغ المعنى المطلوب وتحقيقه. وقد أوقعهم ذلك المصير، كما نعلم، في اختلاف فيما بينهم. فمنهم من ظهرت له دلائل المعنى الأول. ومنهم من تجلت له دلائل المعنى الثاني. ولم يكن من سبيل إلا أن يتحمل كل من الفريقين مسؤولية اجتهاده، وما سكنت إليه نفسه. حتى إذا وصلوا إلى رسول

الله وأخبروه بشأنهم، سكت سكوت المؤيد للفريقين، أي للذين قاموا فصلوا العصر قضاء، وللذين عاجلوا فوات الوقت فصلوها في طريقهم إليه (رواه البخاري).

وعندما رأى أحد الصحابة، وقد وصل متأخرا إلى المسجد، أن النبي صلى الله عليه وسلم يوشك أن يركع، أسرع يركض في المسجد حتى لحق رسول الله في الركوع، اجتهادا منه بأن ذلك هو الخير. ولما فرغ رسول الله من الصلاة، وعلم بشأنه، نظر إليه قائلا: زادك الله حرصا ولا تعد (رواه البخاري وأحمد و النسائي و أبو داود). فقد أعجب النبي صلى الله عليه وسلم باجتهاده، وشكر له حرصه على أن لا تفوته الركعة مع رسول الله. غير أنه لفت نظره إلى ما هو المفضل في علم الله وهديه، وهو التمهل والمشي الهوينى في المسجد.. ولولا وجود رسول الله والوحي الذي كان مؤيدا به، لامتد من اجتهاد ذلك الصحابي مذهب مشروع في اختيار ماهو الأفضل في مثل هذه الحال.

إذن فالعامل الأساسي في نشأة المذاهب، هو اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية المستنبطة من الأدلة المحتملة. وقد رأى رسول الله هذا الاختلاف فلم ينكره بل أيده.

ولا يعارض تأييده له أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينبه الصحابي المجتهد إلى الرأي الصواب أو الأصوب، كقوله لذلك الصحابي : زادك الله حرصا ولا تعد. وكقوله لعمار، (وقد أجنب في سرية فلم يجد ماء، فتمعك بالتراب) : إنما كان يكفيك أن تضرب بيدك الأرض ثم تنفخ ثم تمسح بها وجهك وكفيك (رواه البخاري و مسلم في باب التيمم). إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بموقفه ذاك، بين تدريب أصحابه على الاجتهاد في فهم ما غمض من الأحكام كلما اقتضت الحاجة، وتحويلهم إلى الحكم الصحيح -باعتباره نبيا مؤيدا بالوحي- كلما تنكب أحدهم في اجتهاده عنه.

هذا، ولم نشأ في هذا البحث المكثف أن نأتي على ذكر جزئيات العوامل المتعلقة بنشأة المذاهب، مكتفين بينبوع هذه العوامل ومصدرها، ألا وهو الاحتمال القائم في الأدلة الفقهية الباعث بدوره على اختلاف الفقهاء. ولاشك أن لهذا الاحتمال أسبابه الجزئية، غير أنها مطوية في هذا العامل الرئيسي، ولا غرض لنا في تفصيل القول عنها في هذا الصدد.

تاريخ نشأة المذاهب الفقهية :

يعود تاريخ نشأة المذاهب الفقهية إلى عصر الصحابة، وهو العصر الذي يلي وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة. لقد كان فقهاء الصحابة، على الرغم من اتفاقهم في معرفة أكثر الأحكام الفقهية، يختلفون في فهم بعض يسير منها. فكانت الآراء التي يختص بها أحدهم تشكل مذهبه الفقهي الذي ينفرد به عن الآخرين. ولا شك أنه لا مدخل لقلة الآراء أو لكثرتها في تكوين المذهب الفقهي. إذ إن حجم المذهب، اتساعا وضيقا، يكون تابعا لحجم المسائل التي يتكون منها.

فحتى لو لم يكن للفقيه أكثر من رأي اجتهادي واحد في مسألة فقهية واحدة، فإن انفراده برأيه الخاص في تلك المسألة يجعل له في ذلك، بكل جدارة، مذهبا. ومن هنا فقد كان لعبد الله بن عباس مذهب خاص به في جملة من المسائل الفقهية. وكان لعبد الله بن عمر مذهبه الخاص به أيضا في جملة أخرى من المسائل، وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه مذهبه الخاص به في مثل ذلك.. وهكذا.

ويعود السبب في عدم بروز مذهب كل من هؤلاء الصحابة وعدم ارتباطه باسمه، خلال التاريخ، كما هو الشأن في مذاهب الأئمة الأربعة، إلا أن أيا من مذاهب الصحابة لم يتح له أن يجمع وأن يدون وينسب إلى صاحبه خلال القرون كما قد أتيح لمذاهب الأئمة الأربعة. هذا بالإضافة إلى أن الأنشطة العلمية لأولئك الصحابة إنما تجلت في اجتهادات جزئية

متناثرة، دون أن ينظمها منهج كلي، إذ لم تكن قد ظهرت الحاجة بعد إلى الاعتماد، في الاجتهاد، على موازين ومناهج تعصم عن الخطإ.

أما تطور المذاهب الفقهية، فالبحث في ذلك يطول، ولسنا هنا بصدد تفصيل القول في ذلك. غير أن أهم ما يجدر لفت النظر إليه، أن من أهم العوامل التي أدت إلى تطوير المذاهب الفقهية، تفرق الصحابة، في خلافة عثمان وما بعدها في الأمصار المختلفة، وهو الأمر الذي طبع تلامذتهم من التابعين بطابع المكان الذي استوطنوا وأقاموا فيه.

وقد كانت مدرسة الرأي في العراق، ومدرسة الحديث في الحجاز أول، بل أخطر مظهر من مظاهر هذا التطور الذي جاء نتيجة لهذا العامل الكبير. وكانت له نتائج إيجابية أخرى تلت هذه النتيجة السلبية، بل كانت ثمرة طيبة لها. من أبرزها وأهمها ظهور منهج يلتقي عليه الأطراف جميعا للسير على أساسه في ضبط عملية الاجتهاد الفقهي. وهو المنهج الذي يتمثل في قواعد تفسير النصوص أو ما كان يسمى بعلم أصول الفقه.

ومن أهم هذه النتائج الإيجابية تلاقي مدرستي الرأي والحديث على طريقة عادلة مثلى منعت من الوقوع، الذي كان وشيكا، في كلا طرفي الإفراط والتفريط. ومن النتائج الإيجابية الهامة أيضا ظهور علم مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل، والاهتمام بضبط الرواية وحمايتها من الزيف والدس. ومن هذه النتائج كثرة الرحلات العلمية في سبيل الفقه والحديث وكثرة الحوار والنقاش في المسائل الفقهية، الأمر الذي ضيق من حجم الخلافات الفقهية وجذب كثيرا من الآراء المتخالفة إلى ساحة الاتفاق.

ففي ظل هذه النتائج ظهرت المذاهب الأربعة، ومذاهب كثيرة أخرى لم تكتب لها الشهرة التي كتبت لتلك.

الاختلافات الفقهية كانت ولاتزال اختلافات تعاونية :

الآن، وقد تم بيان وجيز للنقاط الثلاث التي رأينا أن نمهد بها للإجابة عن السؤال الذي تطارحناه، نقول : إننا لا نرتاب على ضوء ما قد ذكرناه الآن، في أن نشأة المذاهب الفقهية وتطورها وانتهاءها إلى التي هي عليها الآن، كل ذلك كان خير حماية للوحدة الإسلامية من التصدع والشقاق.

وقد يبدو غريبا في أذهان بعض الناس أن تكون اختلافات المسلمين في فهم الشريعة الإسلامية تعميقا لعوامل وحدتهم وحماية لها من عادية التفرق والشقاق.

غير أن هذا التصور صحيح عندما يكون مآل الاختلاف أن ينسب كل فريق صاحبه إلى انحراف في الفهم والسلوك، أو إلى الوقوع في خطيئة لا تغتفر.

غير أن الذي تبين لنا من معنى المذاهب الفقهية وعوامل نشأتها، أن الخلافات الفقهية التي تشكل العمود الفقري في تلك المذاهب، كانت خلافات تعاونية مبررة، لا خصومات أو شقاقات فكرية مجرمة. ومعنى هذا أن نسيج الوحدة الإسلامية إنما تلاقت سداه ولحمته من هذه الخلافات التعاونية. إذ لولا الساحة التشريعية العريضة التي تكونت من مجموع الاجتهادات الفقهية المتعددة، لما أتيح للمساحات الإسلامية الشاسعة والمتنوعة، أن تتلاقى وتتلاحم تحت مظلة شرعة واحدة. ومن ثم لما أتيح لها أن تخضع، على اتساعها، لنظام دولة واحدة.

وإن نظرة واحدة متدبرة إلى التفاعل الذي كان قائما، في صدر الإسلام، وأيام الخلافة الراشدة وما بعدها، بين أنشطة المذاهب الفقهية من جانب ومظاهر وحدة الدولة الإسلامية من جانب آخر، ليبرز ويؤكد هذه الحقيقة التي نقولها. وما سمعنا

في التاريخ قط أن خلافات المذاهب الفقهية كانت وبالا على الوحدة الإسلامية في أي من عصورها الذهبية.

ولا ينبغي -ونحن نؤكد هذه الحقيقة- أن ننسى دور المناهج الفكرية، واعتماد الفقهاء على قواعد تفسير النصوص التي تم تدوينها في أواخر القرن الثاني، في تحصين هذه المذاهب ضد عادية الشرور، وعوامل الانزلاق في المتاهات التي من شأنها أن تنتزع ثقة الأئمة والعلماء بعضهم ببعض، وأن تحيل اختلافاتهم التعاونية إلى اتهامات وشقاق.

ولا داعي إلى أن نعيد إلى الذاكرة ثناء أئمة المذاهب الأربعة بعضهم على بعض، وصلة الود والتقدير المتبادلين بين الإمام الشافعي والإمام أحمد، وإعجاب كل منهما بالآخر، وثناء الإمام الشافعي على أبي حنيفة وتلميذه محمد وأبي يوسف، وقول الشافعي عن الإمام مالك : «إذا جاءك الأثر عن مالك فشد به.. وإذا ذكر العلماء فمالك النجم» وقوله عنه أيضا «مالك معلمي وعنه أخذنا العلم» (1).

الآفات التي لحقت بالمذاهب الفقهية :

غير أن المذاهب الفقهية على الرغم من دورها الإيجابي، في ترسيخ بناء الشريعة الإسلامية، و تقوية دعائم الوحدة الإسلامية، خلال ما لا يقل عن خمسة قروق من عمر الشريعة الإسلامية، أصابتها -كأي شيء آخر- آفات قلصت الكثير من آثارها الإيجابية، وكادت أن تحيل آثارها المفيدة الوحدوية إلى نتائج سلبية ضارة في كثير من الأحيان.

وتتلخص هذه الآفات في :

١- تسليط قدر كبير من آثار الاختلاف بين الفرق الاعتقادية والسياسية عليها.

٢- إخضاع ضوابط الرواية وعلم الجرح والتعديل لتيار بعض المذاهب الاعتقادية والسياسية.

٣- تعصب أتباع المذاهب لمذاهبهم.

فلنفصل القول في كل من هذه الآفات بالقدر الذي تتعلق به الحاجة في هذا المقام.

أولا- أثر الاختلافات الاعتقادية والسياسية على المذاهب الفقهية :

من المعلوم أن أكثر المذاهب الاعتقادية التي يعبر عنها بالفرق، بادت بعد أن انتشرت وسادت، فالمرجئة والجهمية والقدرية والمجسمة والحشوية، وحتى المعتزلة، ما كادت تعبر عن ذاتها وأفكارها بالجدل هنا وهناك حينا من الوقت، حتى أخذت تضمحل ثم تذوب في تيار العقيدة الإسلامية الكبرى المتمثلة فيمن يسمون بأهل السنة والجماعة.

ولا يخفى أن الفضل في ذلك يعود إلى إمامين جليلين ظهرا في عصر واحد، أحدهما الإمام أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري (260-330) وثانيها الإمام محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي (...-268). إن أيا من هذين الإمامين لم يكن صاحب مذهب أو نحلة، أو داعيا إلى أي بدعة جديدة. بل انحصر عمل كل منهما في الانتصار لكتاب الله وسنة رسوله، وفي السعي الدؤوب للعودة بالمسلمين إلى ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بعيدا عن سائر البدع والأهواء المستحدثة.

وقد كانت جماعة الفقهاء والمحدثين والمشتغلين بالتفسير في الحجاز وبلاد الشام والعراق قد اعتزلوا الخصومات التي ارتفع أوارها بين تلك الفرق المبتدعة المتهارجة، ومضى كل منهم يعكف على ما تفرغ له من حديث أو فقه أو تفسير. فلما رأوا الإمام الأشعري واقفا في وجه تلك التيارات كلها، يذب عن حياض الكتاب والسنة، داعيا إلى النهج الذي كان عليه أصحاب رسول الله والتابعون من بعده، أقبلوا إليه من كل حدب وصوب يؤيدونه و يدعمونه وينتصرون له، ومن ثم سموه نصير أهل السنة.

وقد كان في مجمل عمله الذي قام به كل منهما، أشبه ما يكون بمن أقبل على جادة عريضة تكاثرت فوقها الأتربة والحجارة والرمال، حتى ضاع على المارة معالمها وتاهوا عن حدودها، فجعل يزيح عنها الأتربة والرمال، ويعيدها معبدة تحت الأقدام ويجلي معالمها وحدودها أمام الأنظار. أي إن الإمام الأشعري لم ينشيء ولم يبتدع أي مذهب جديد، وإنما عمد إلى الصراط العريض الذي تركه رسول الله جليا واضحا ظاهره كباطنه، ثم جاءت تلك الفرق المبتدعة فمدت فوقه من خصوماتها وابتداعاتها سحبا وغشاوات ضيعت معالمه على الآخرين وعلى كل من سيأتي بعدهم، فبدد هذا الإمام تلك السحب والغشاوات، وأعاد ذلك الصراط كما تركه رسول الله ناصعا جليا بصدق بلائه وانتصاره لكتاب الله وسنة رسوله. فلذلك خرج علماء الفقه والحديث والتفسير عندئذ من عزلتهم الطويلة التي كانوا قد آثروا الالتجاء إليها فرارا من صخب تلك المجادلات، وأخذوا يؤيدونه من كل الجهات وأحاطوا به إحاطة الجنود بالقائد.

وهذا ما فعله الإمام الماتريدي أيضا، في بلاد ما وراء النهر.

والمهم أن نكون على بينة من أن الإمام الأشعري لم يكن صاحب فرقة تضاف إلى تلك الفرق المبتدعة، كما توحي بذلك المدارس الاستشراقية المختلفة، ولو كان في حقيقته كذلك، إذن لما أقبل إليه جماهير علماء الفقه والحديث والتفسير مؤيدين ومنتصرين وهم الذين كانوا قد قاطعوا واعتزلوا تلك الفرق المبتدعة كلها. يقول ابن السبكي في طبقات الشافعية: «اعلم أن أبا الحسن الأشعري لم يبدع رأيا ولم ينشيء مذهبا، وإنما هو مقرر لمذهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالانتساب إليه إنما هو بأنه عقد على طريقة السلف نطاقا وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه فصار المقتدى به في ذلك، السالك سبيله في الدلائل، يسمى أشعريا» (2).

ويقول ابن خلكان: «هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب أهل السنة، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية» (3). وقال عنه ابن العماد في شذرات الذهب: «وقد بيض الله به وجوه أهل السنة النبوية وسود به آيات أهل الاعتزال والجهمية، فأبان به وجه الحق الأبلج، ولصدور أهل العلم والعرفان أثلج» (4). وقال عنه ابن عساكر: «اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري -رضي الله عنه- كان إماما من أئمة أصحاب الحديث. ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ورد المخالفين من أهل الزيغ والبدعة» (5).

إذن فلقد اختفى جل تلك الفرق المتهارجة التي ظهرت على ساحة المجتمع الإسلامي ظهور الثآليل على الجسم السوي الصحيح، وعادت أصول الوحدة الاعتقادية والفكرية لهذه الأمة راسخة مستقرة من جديد، اللهم إلا أن الفكر الاعتزالي -الذي ساد ثم باد- تسعى اليوم مدارس استشراقية معروفة إلى ابتعاثه من جديد، وذلك خلال بث الدعاية لنثار من مواقفه وآرائه الجزئية. بوسعنا إذن أن نقول: إن هذه الفرق لم تترك خلال فترة هياجها أثرا سلبيا يذكر في علاقات المذاهب الفقهية بعضها ببعض.

إلا أن من الممكن أن نلاحظ ظاهرتين تجسدان نوعا واضحا من التفاعل أو التأثير المتبادل بين بعض تلك الفرق الاعتقادية والمذاهب الفقهية. وبوسع الباحث أن يرى هذا التأثير ظاهرة إيجابية مفيدة، كما أن بوسعه أن يفسرها تفسيرا آخر مخالفا.

الظاهرة الأولى: المذهب الإباضي. ونحن نعلم أن الإباضية هي الفرقة المتبقية من ست فرق تشكل جل من يسمون

بالخوارج. أما الفرق الخمس الأخرى فقد تاب كثير منهم ورجعوا عن ضلالتهم بحكمة سيدنا علي رضي الله عنه في محاورته لهم واتساع صدره معهم، وقضي على سائرهم ممن أبى إلا التكفير والقتال (6).

وفرقة الإباضية هذه، أقل الخوارج شططا وغلوا، وأكثرهم ورعا والتزاما. وقد كان المفروض أن تبقى أفكارهم الفقهية التي اختصوا بها محصورة في النقاط المتعلقة بالأمور الاعتقادية الخاصة بهم. غير أنهم تجاوزوا ذلك إلى إقامة بيان فقهي خاص بهم، وظهرت لهم المؤلفات، بل الموسوعات الفقهية التي تعبر عن شخصية فقهية خاصة للفرقة الإباضية. والراجح الذي تسكن إليه النفس أن فقهاء المذهب الإباضي، لو لم تكن أفكارهم الاعتقادية والسياسية قد شكلت منهم جماعة مستقلة، لكانوا اليوم تلامذة بل فقهاء بارزين تتوازعهم المذاهب الفقهية الأربعة. ولكن جذورهم الفكرية والاعتقادية، أبت عليهم إلا أن تكون لهم شخصية فقهية مستقلة. هذا مع العلم بأن جل آرائهم الفقهية لا تخرج، لدى تمحيص النظر فيها، عن دائرة المذاهب الأربعة.

إن الأثر السلبي الذي لا يغيب عن بال أحدنا لهذه الظاهرة، أن الشاب الإباضي يحسب -وهو يرى أمامه مذهبا فقهيا خاصا بالإباضية- أن مذهبه الاعتقادي الموروث يفرض عليه أن لا يتخذ من دون مذهبه الفقهي مذهبا. ومن ثم فهو ينظر إلى سائر الاجتهادات الفقهية الأخرى، على أنها غير صالحة له، ولا تتفق مع مذهب الاعتقادي أو السياسي. إلا أن الأمر في واقعه العملي، مخالف تماما لهذا التصور. فإن المصادر المعتمدة لاستنباط الأحكام الفقهية، مستقلة كل الاستقلال عن الأدلة المعتمدة في آرائهم الاعتقادية، لا سيما الإباضية الذين لا نكاد نجد فرقا بينهم وبين جمهور أهل السنة في جل الأحكام الفقهية الاجتهادية.

الظاهرة الثانية : المذهب الشيعي الذي تفرعت عنه مذاهب فقهية متعددة، من أبرزها مذهب الإمامية، والزيدية، والهادوية ... الخ. ولسنا الآن بصدد بيان الفروق القائمة بين هذه المذاهب التي تؤول بجملتها إلى مذهب واحد. ولكن الذي يهمنا في هذا الصدد أن نتساءل عن علاقة البنية الفكرية والعقائدية لمذهب الشيعة عموما بالمنهج المعتمد عندهم في الاجتهادات الفقهية!...

إن كلا من الإمام محمد الباقر، وابنه جعفر الصلدق، وزيد بن علي رضي الله عنهم جميعا، من أبرز أئمة الفقه الشيعي اليوم. وما من مسألة فقهية في مذهب الشيعة إلا وتنسب إلى واحد من هؤلاء الأئمة الثلاثة. غير أننا عندما نعود إلى أصول الاجتهاد الفقهي المتعمدة عند هؤلاء الأئمة الاعلام لا نجد أي فرق بينها وبين الأصول الاجتهادية المتبعة لدى سائر الفقهاء، لاسيما أئمة المذاهب الأربعة. بل لقد كان بين هؤلاء الأئمة الثلاثة وأئمة المذاهب الأربعة، من التفاعل والتعاون ما يؤكد أنهم كانوا ينهلون من مصادر فقهية واحدة، ومن ثم فقد كانوا جماعة لكتلة فقهية واحدة. ولقد لقي أبو حنيفة كلا من زيد بن علي ومحمد الباقر وجعفر الصادق فدارسهم وأخذ منهم. ووافقهم في حب آل البيت والتعلق بهم ووافقوه في تقدير الخلفاء الثلاثة واحترامهم وعدم ذكرهم بأي سوء (7). ولقد لقي الامام مالك إمام دار الهجرة جعفر الصادق رضي الله عنه وأخذ عنه وكان يذكره بأحسن ما يذكر طالب شيخه (8).

روى السيوطي في «تزيين الممالك» أن الإمام مالكا قال : «كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثيرالمزاح والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اخضر واصفر. ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصليا وإما يقرأ القرآن وإما صائما. وما رأيته قط يحدث عن رسول الله إلا على طهارة، ولا يتكلم فيما لايعنيه. وكان من

العلماء العباد الزهاد، وما رأيته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته، ويجعلها تحتي ...»

إذن، فقد كان المنهل الفقهي وأصول الاجتهاد عند هؤلاء جميعا واحدة، وكانوا يتلاقون على خدمة الشريعة الإسلامية وتجلية أحكامها، أسرة علمية وإسلامية واحدة.

وقد كان من مقتضى ذلك أن لا نرى اليوم للشيعة -إمامية أو زيدية كانوا- مذهبا فقهيا خاصا يستقلون به. غير أن الواقع الذي آل إليه الأمر أخيرا خلاف ذلك. فإن للشيعة اليوم مذهبا فقهيا خاصا بهم، بالإضافة إلى مذهبهم الاعتقادي أو السياسي الذي تفردوا به.

وإن أحدنا ليسأل: كيف أمكن أن يتكون للشيعة فقه مستقل وخاص بهم، مما زادهم انشطارا واستقلالية عن جمهرة أهل السنة والجماعة، مع ما نعلمه يقينا بأن كلا من زيد بن علي ومحمد الباقر وجعفر الصادق -وهم ركائز ومصادر ما يسمى اليوم بالفقه الشيعي- كانوا أساتذة لأكثر أئمة المذاهب الأربعة، إن لم نقل إنهم كانوا أساتذة وشيوخا لهم جميعا، ولم نعثر بعد طول البحث والتحقيق، على أيّ تحفظ فكري أو مذهبي من أي الطرفين للآخر. بل إننا لنسأل: ما الذي حال دون استمرار هذه الوحدة المذهبية إلى اليوم؟

أغلب الظن أن الشخصية الفقهية للشيعة، نشأت فيما بعد، مع الزمن. وإنما نشأت ظلا لشخصية التشيع وآثاره وذيوله، وهذا ما لم يكن موجودا في عهد أولئك الأساطين من الأئمة في القرون الثلاثة المباركة التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولعل بروز هذه الشخصية الفقهية فيما بعد، لم تكن إلا نتيجة عامل واحد، هو الغلو في معنى الانتصار والتشيع لآل البيت. على أن هذا الغلو ذاته لم يكن ليستدعي انشطار الشيعة عن جمهرة المسلمين فيما هم جميعا متفقون عليه وسائرون منه على صراط واحد. ألا وهو الأحكام الفقهيه العملية. فإن كان لذلك عامل آخر، فهو إذن هذا العامل الثاني الذي سنتكلم عنه والذي يشكل في الوقت ذاته الآفة الثانية من الآفات التي لحقت المذاهب الفقهية.

ثانيا- إخضاع فن الرواية وعلم الجرح والتعديل لشرط العصمة:

وإنما اشترطها الشيعة في الأصل لصحة الإمامة، سواء منهم من يرى أن الإمامة محصورة في أولاد فاطمة رضي الله عنها بالنص عليهم واحدا إثر آخر، أو من يرى أن مساق الخلافة في أولادها ولكن باختيار الشيوخ. ولهم على ذلك أدلتهم التي يسوقونها. غير أنهم، أو كثيرا منهم، سحبوا هذا الشرط إلى فن الرواية والجرح والتعديل. فجعلوا من جملة شروط قبول الرواية أن يكون الراوي من آل البيت، ولعلهم إنما يشترطون ذلك تلمسا لمزية العصمة في الرواة. إذ لو لم يفترض انفراد آل البيت بها لما كان ثمة أي معنى لاشتراط كون الراوي من آل البيت.

إن اعتبار هذا الشرط، ووضع الشيعة له فيما بعد موضع التيفيذ، كان لابد أن يفرد الشيعة بمنهج مستقل في فهم الحديث الصحيح وشروط الأخذ به. ومن ثم فقد كان لابد أن ينبثق لهم من ذلك فقه خاص بهم يعتمد على أحاديث خاصة بهم.

ونحن لا نريد هنا أن نناقش هذا الشرط الذي فرضوه في الأصل بصحة الإمامة غير أنا نوضح أن أيا من أئمة آل البيت رضي الله عنهم، وفي مقدمتهم أولئك الاعلام الثلاثة، لم يقتصر في أخذه الحديث على آل البيت. بل روى عنهم وعن عامة الصحابة، وعن كثير من التابعين، كإبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن المسيب، وعبيد الله بن أبي رافع ...الخ. كما أن آل البيت لم يكونوا هم المنفردين بالرواية عن كل منهم،

بل التفى على الرواية عنهم والأخذ منهم جمهرة أهل السنة والجماعة من آل البيت وغيرهم (9).

فكان من آثار ذلك أن اتحد سبيل الاجتهاد الفقهي فيما بينهم وانطلقت موازينه من رؤية وأصول واحدة. إذن فما المبرر لهذا الانشطار الذي ظهر فيما بعد؟ ومن أين انبثقت ضرورة عدم أخذ الحديث إلا من آل البيت، وحصر الرواية فيهم؟

ثالثا تعصب اتباع المذاهب لمذاهبهم :

نشأت هذه العصبية في القرون المتأخرة، ولعلها زادت واستشرت في أواخر عهد الخلافة العثمانية، إذ كان المذهب الحنفي هو المعتمد من قبل الدولة، ومن ثم فقد كان هو السائد في أكثرالمناطق الخاضعة لنفوذ الأتراك. ولعل أتباع المذهب الحنفي هم أول من أظهروا العصبية لمذهبهم، فألحقوا به ذيولا من الأحكام التي لم تكن معروفة من قبل كتحريم الانتقال من المذهب الحنفي إلى غيره، وإخضاع من يفعل ذلك لنوع من التعزير، وكالتشنيع على الاجتهادات الفقهية عند بعض المذاهب الأخرى، في كثير من حواشي المتأخرين، حيثما مرت مناسبة. ولعل متأخري الحنفية هم أول من ابتدعوا إنشاء عدد من المحاريب في المسجد الواحد، بقدر عدد المذاهب المنتشرة في تلك المنطقة، وكان ذلك تمهيدا لتنظيم أربع جماعات في المسجد الواحد لكل صلاة، وإيعازا بحرمة اقتداء الشافعي بالإمام الحنفي والعكس. ولقد انتشرت هذه العادة فعلا في البلاد التي ينتشر فيها أكثر من مذهب واحد كبلاد الشام والعراق. وفي المسجد الأموي بدمشق يوجد إلى الآن أربعة محاريب لأربعة مذاهب. ولكل منها إمام راتب يفترض أن لا يقتدي به إلا من هم على مذهبه.

هذا مع العلم بأن الإجماع منعقد على صحة اقتداء المصلي بالإمام الذي ينتمي إلى مذهب مخالف لمذهبه، ما دام أن غير متأكد من أن الإمام متلبس بما يبطل الصلاة في مذهب المقتدي. على أن هذا في حق من كان لديه من الثقافة الفقهية ما يجعله أهلا لاتباع مذهب فقهي بعينه. فأما عوامل الناس، فإن مذهب أحدهم إنما هو مذهب الإمام الذي يقتدي به (10).

ومن الطبيعي أن ينشأ عن هذا التعصب ردود فعل من جنس المشكلة ذاتها لدى أتباع المذاهب الأخرى. وقد ظهرت ردود الفعل هذه في مظاهر متعددة. فمنها اعتداد كل صاحب مذهب بمذهبه، إلى درجة الاستهانة والانتقاص من المذاهب الأخرى. وهكذا، فبعد أن كان الخلاف بين أئمة هذه المذاهب خلافا تعاونيا، كما قلنا، تحول الخلاف بين أتباعها في كثير من الأحيان إلى تنافس وتخاصم واتهام.

ومنها الركون إلى المماحكات والمجادلات المؤلمة والجارحة، في جزئيات فقهية مما وقع فيه الخلاف، كإسبال اليد وعدم إسبالها في الصلاة، وكالقنوت أو عدم القنوت في صلاة الفجر وقضاء الصلاة الفائتة أو عدم قضائها، وكمشروعية أو عدم مشروعية جلسة الاستراحة في الصلاة...الخ. فبعد أن كانت هذه المسائل توضع في أماكنها من الاعتبار ضمن سلم الأولويات، عند الأئمة والفقهاء السابقين، وكانوا يمرون باجتهاداتهم عندها، دون أن يستشعر أحدهم بأي وقع لاختلافاتهم فيها، إلى درجة أن الإمام الشافعي أمسك عن القنوت في صلاة الصبح في مسجد أبي حنيفة ببغداد، ولما سئل عن ذلك قال : أدبا مع صاحب هذا القبر. أقول : بعد أن كان هذا هو موقف الأئمة السابقين من هذه المسائل الجزئية، خلف من بعدهم خلف يتباهون بآرائهم الشخصية في هذه المسائل، ويجعلون منها عصي تأديب واتهام لكل من خالفهم فيها، ولا يبالون أن يثيروا أخطر أنواع الشجار فيما بينهم وربما داخل المساجد، لينتصر كل منهم لنفسه في ساحة هذه

الجزئيات الي ليست لها أي أهمية في ترتيب سلم الأولويات.

ومن أسوإ ما أفرزته هذه الخصومات التي بلغت في كثير من الأوقات إلى درجة اللكم والصفع في داخل المساجد، كتاب أصدره أحدهم بعنوان «الأزهار الفواحة في سنية جلسة الاستراحة»!

وواضح جدا لكل ذي وعي من الناس أن هذا الخصام الشديد الذي يمزق وحدة المسلمين إربا، ليس انتصارا لدين الله من خلال هذه الجزئيات الصغيرة التي يسع المسلم أن يتقرب إلى الله بفهمها على الوجه الذي يريد، بل يسعه أن لا يلتزم بها أصلا، وإنما هو انتصار في الحقيقة للنفس على حساب مصلحة الدين ، بل في مقابل القضاء على أقدس ما جاء الإسلام لتحقيقه ثم لحمايته، ألا وهو وحدة هذه الأمة وتضامنها.

ولعل هذه الظاهرة التي نعاني منها اليوم، هي أبلغ وأخطر ما قد وصلت إليه العصبية المذهبية، بل عصبية الاختلافات الفقهية عموما، في حياة المسلمين. وإني لأعلم أن المتربصين بالإسلام والمسلمين، يستغلون هذه المصيبة التي جرها المسلمون بأيديهم على أنفسهم، أبشع استغلال.

وأخيرا، كيف نعالج هذه الآفات؟

ليس فينا من يجهل القاعدة القائلة : إدراك المشكلة واليقين بأنها مشكلة يساوي نصف الطريق إلى حلها. وفي يقيني، أن إيماننا جميع بأن هذه الآفات الثلاث هي فعلا آفات خطيرة تقلب الآثار الإيجابية المفيدة للمذاهب الفقهية إلى آثار سلبية ضارة، يشكل أهم مراحل المعالجة لها.

من الذي يدرك أن هذه الآفات الثلاثة هي فعلا كما قلنا، ثم يركن مع ذلك إليها ويدعمها في دراسته العلمية وسلوكه العملي، إلا أن كان من يضيق ذرعا بقوة هذه الأمة، ويسعد برؤيتها متفرقة متخاصمة ؟!... ولكن، ترى هل يوجد فينا من لا يؤمن بأن هذه الآفات هي فعلا آفات؟ وإذا كان فينا من لم يكن يؤمن بذلك، أفلا يرى ما هو خاضع لسلطان التجربة والمشاهدة، من النتائج السيئة لها، والتي لا يرتاب في شدة سوئها وآثارها الضارة أحد؟

فإن كان هناك من يكابر، ويصف هذه الآفات بنقائضها من الخير والفائدة للإسلام والمسلمين، فليس عندئذ من جدوى ولا علاج لتحطيم كبرياء هذه المكابرة، إلا أن نستثير في الألباب والنفوس عوامل الإخلاص لدين الله والسعي إلى مرضاة الله.

ومحال -لمن أخلص لله عز وجل في عمله وسعيه- أن يتيه في هذه الساحة عن معرفة الحق أو أن يلتبس عليه الانتصار للنفس وكبريائها، بالانتصار لدين الله واتباع مرضاته. غير أن الإخلاص لدين الله سر يودعه الله -كما قالوا- قلب من أحب من عباده، فلا يتم الحصول عليه بتصنع أو تكلف. إذن فما السبيل للحصول على هذا السر الرباني العظيم؟

السبيل هو أخذ النفس بمنهج تربوي جاد ودائم، قوامه الإكثار من ذكر الله ومراقبته وربط النعم دائما بالمنعم. فإن المسلم إذا استقام على استعمال هدا العلاج، تنامت محبة الله بين جوانحه، وإنما ينبثق الإخلاص من هذا الحب... وفي ضرام هذا الحب تنمحي حظوظ النفس وتذوب مشاعر الكبرياء، وتتجلى هذه الآفات على أنها فعلا آفات. وما أسهل -حينئذ- القفز فوقها، والعود إلى سنن الرشد الذي كان عليه السلف الصالح، إذ كان اختلافهم اختلافا تعاونيا، يزيدهم ألفة وتضامنا وحبا.

(انظر هوامش هذا المقال في أسفل الصفحة 29)

التفاهم حول أصول الفقه سبيل للتقريب

محمد علي التسخيري

المدخل:

ربما كان من نافلة القول الحديث عن ضرورة الوحدة الإسلامية بعد أن كانت من الخصائص القرآنية للأمة الإسلامية حتى لكأنها تفقد هويتها إذا فقدت وحدتها، وتغرق في الفتنة والفساد إذا تمزقت عرى الولاية بين أفرادها. يقول تعالى: "والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" [الأنفال 73].

وللوحدة الإسلامية سبلها ومحققاتها وبرامجها التي رسمها الإسلام بكل إحكام وشمول تنتهي بالتالي إلى تحقيق هذا الأمر الكبير. ولعل من سبلها عملية التقريب بين الأفكار والاتجاهات والمذاهب المختلفة إذ بدون ذلك تزداد الهوة وتتسع الشقة حتى لتجد الأمة بعد ذلك نفسها ممزقة متهاوية متنازعة فقدت تماسكها واستواءها وراحت في مهب الريح العاتية.

وليس التقريب عملية قسرية أو مصطنعة أو حركة سياسية يراد بها ستر جانب من الضعف والنقص لكي تتم عملية تمويه على الطرف الآخر بل هي عملية أصيلة تقتضيها مجموعة أمور واقعة من أهمها:

أولا: إن الخلاف الفكري والاستنباطي أمر متوقع تماما وخصوصا عندما يراد استنباط تشريع كامل للحياة من نصوص وتقريرات ونماذج عليا، الأمر الذي يقع فيه اختلاف في الاستنتاج بشكل طبيعي. ويشتد ذلك عندما تفصلنا عن عصر النص عصور وقرون ونبتلى بمضاعفات كثيرة (كضياع جملة من الأحاديث ولزوم تمحيص الأسانيد وتغيير أساليب التعبير وقرائن التفهيم والملابسات التي تكتنف الكلام ودخول شيء كثير من الدس والافتراء في مجاميع الروايات، الأمر الذي يتطلب عناية بالغة في التمحيص والتدقيق هذا إضافة إلى أن تطور الحياة يفرض عددا كثيرا من الوقائع والحوادث الجديدة لم يرد فيها نص خاص، فلا بد من استنباط حكمها على ضوء القواعد العامة)(1).

ثانيا: إن فتح باب الاجتهاد أمر طبيعي وضروري لتحقيق المرونة التشريعية والمسايرة الإسلامية لتطورات الحياة، الأمر الذي يؤدي إلى اختلافات كثيرة في الاجتهاد، وهي اختلافات قبلها الإسلام بمقتضى واقعيته. أما النصوص الناهية عن مثل ذلك فلا تنصب على الاختلاف الفكري وإنما على النزاع العملي (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وإذا سَرَت إلى الجانب الفكري فإنما تركز على الجانب المعصوم منه والذي لا يتطرق إليه الخطأ، الأمر الذي لا يبقي مجالا للاختلاف والاجتهاد الفقهي وهو ما عبر عنه بحبل الله، فالقرآن المصون حبل الله، والسنة الشريفة بنصوصها المقطوعة سندا ودلالة حبل الله ولا مجال للنزاع في ذلك.

ثالثا : إن الاختلاف الاجتهادي إنما سمح له انطلاقا من واقع الفكر الإنساني القاصر -من جهة- وتحقيقا لعملية الإثراء العلمي -من جهة أخرى- ؛ وهذا يعني أنه يجب أن يسير باتجاه مصلحة الأمة وتراثها التشريعي والقانوني والتنظيمي، لا باتجاه تمزيقها وإضاعة شخصيتها المتميزة، ولا يتم ضمان السير الطبيعي إلا إذا نفيت كل العناصر التحريفية للمسيرة والتي تعمل على تحويل وجهتها الطبيعية إلى اتجاه تخريبي ممزق يبدأ قليلا وينتهي إلى تمزق فظيع وهذه العناصر كثيرة :

منها : الأهواء السياسية التي تسخر بعض الفقهاء لصالح الحكام ليحققوا بعض الأهداف الضيقة.

ومنها : جهل البعض بمباني البعض الآخر وحدود فتاواهم.

ومنها : عمليات الخروج عن مقتضيات الخلاف الفكري إلى مساحات عملية لا علاقة لها بموضوع الخلاف، مما ينجم عنه تجريد الأمر عن ظروفه وتحويله إلى عامل نزاع عقائدي وغير ذلك.

وعليه، فالتقريب عملية تفاهم وتقارب ونفي للعناصر التحريفية ووضع للمسيرة على الخط الطبيعي المثري لا غير.

أسباب الاختلاف

ومعرفة أسباب الاختلاف الفقهي أمر مفيد جدا لتحقيق التقريب وضروري لبحثنا هذا فما هي هذه الأسباب؟

أرجعت ورقة العمل المقدمة من قبل اللجنة المنظمة لندوة التقريب هذه والتي تنعقد في المغرب (ص 15)، أرجعت هذه الأسباب إلى أسباب أربعة هي :

أ ـ الاختلاف في دلالة النص الثابت.

ب ـ الاختلاف في صحة النص المتعلق بالحكم.

ج ـ تباين الاجتهاد في ترجيح الأدلة عند تعارضها.

د ـ اختلاف الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص صريح .

وأوجزها ابن رشد في مقدمة كتابه " بداية المجتهد ونهاية المقتصد" (ج 1 ص 5-6) وحصرها في ستة أمور :

أحدها : تردد الألفاظ بين هذه الطرق الأربع أعني بين أن يكون اللفظ عاما يراد به الخاص أو خاصا يراد به العام أو خاصا يراد به الخاص أو يكون له دليل الخطاب أو لا يكون.

والثاني : الاشتراك الذي في الألفاظ، وذلك إما في اللفظ المفرد كلفظ "القرء" الذي يطلق على الاطهار وعلى الحيض، وكذلك لفظ "الأمر" هل يحمل على الوجوب أو على الندب، ولفظ "النهي" هل يحمل على التحريم أو الكراهية. وأما في اللفظ المركب مثل قوله تعالى "إلا الذين تابوا" [النور 5] فإنه يحتمل أن يعود على الفاسق فقط ويحتمل أن يعود على الفاسق والشاهد فتكون التوبة رافعة للفسق ومجيزة شهادة القاذف.

والثالث : اختلاف الإعراب.

والرابع : تردد اللفظ بين حمله على الحقيقة أو حمله على نوع من أنواع المجاز التي هي إما الحذف وإما الزيادة وإما التأخير وإما تردد على الحقيقة أي الاستعارة.

والخامس : إطلاق اللفظ تارة وتقييده تارة أخرى مثل إطلاق الرقبة في العتق تارة وتقييدها بالإيمان تارة.

والسادس : التعارض في الشيئين في جميع أصناف الألفاظ التي يتلقى منها الشرع الأحكام بعضها مع بعض، وكذلك التعارض الذي يأتي في الأفعال أو في الإقرارات أو تعارض القياسات نفسها، أو التعارض الذي يتركب من هذه الأصناف الثلاثة أعني معارضة القول للفعل أو للإقرار أو للقياس ومعارضة الفعل للإقرار أو للقياس ومعارضة الإقرار للقياس.

إلا أن هذا التقسيم وقع موقع الاعتراض، إذ أنه ركز على الأسباب التي تتصل بالاختلاف في تنقيح الصغريات لحجية الظهور، أو حجية القياس، في حين أن الاختلاف في الكبريات نفسها -باعتبارها المنشأ الأساس لهذا الاختلاف- مما يمكن

تجاهله. ولذا اتجهوا للتركيز على منبعين رئيسيين هما :

1- الخلاف في الأصول والمباني العامة المعتمدة في الاستنباط الاجتهادي كالخلاف في حجية القياس أو العقل أو الاستصحاب.

2- الخلاف في تعيين مصاديق تلك الكبريات وموارد انطباقها. (وفي هذا القسم تنتظم جميع تلكم المناشيء التي ذكرها ابن رشد، ونظائرها مما لم يتعرض له، كمباحث المفاهيم والمشتقات ومعاني الحروف وما يشخص صغريات حجية العقل كباب الملازمات العقلية بما فيه من بحوث مقدمة الواجب، واجتماع الأمر والنهي، والإجزاء، واقتضاء الأمر بالشيء النهي عن ضده، وغيرها من المباحث المهمة) (2).

وهذا التقسيم الأخير بلا ريب أوفى وأكثر انطباقا على الواقع من التقسيمين السابقين وهذا يعني أن الاختلاف في أصول الفقه هو الأساس في جل الاختلافات في الفتاوي، الأمر الذي يتطلب جهدا واسعا ولقاءات علمية مستمرة لتحقيق تفهم أكبر للآراء والأدلة والوصول إلى مساحات مشتركة -وهي واسعة كما أتصور- وذلك تقليلا للخلاف من جهة، وتفهما أكثر لوجهة النظر الفقهية المخالفة، من جهة أخرى، الأمر الذي يمنع من انسحاب هذا الخلاف الطبيعي إلى المجالات التحريفية التي ألمحنا إليها.

ثلاثة مواضيع لها أهميتها في هذا المجال

الموضوع الأول : ضرورة التحديد في منهج الاستدلال وملاحظة الترتيب المنطقي بين الأدلة. وهو أمر ضروري جدا وإلا لوقعنا في الخلط الكبير. ولا أعتقد أننا إذا ركزنا على نوع الدليل ولاحظنا ظروفه الخاصة به، سوف نختلف في الترتيب المطلوب. وبدون ذلك نشهد اضطرابا واسعا ؛ فهذا يستدل بالاستصحاب أولا ثم يلجأ إلى النص، وذاك يذكر مقتضى أصل الإباحة ثم يلجأ للإجماع، وهكذا نقع في دوامة فقهية فظيعة. وسر هذا الوقوع عدم التصفية المنهجية ابتداء وهي شرط كل استدلال فقهي متين.

وفي هذا الصدد نجد مثلا الإمام الغزالي يطرح الترتيب على النحو التالي : "يجب على المجتهد في كل مسألة أن يرد نظره إلى النفي الأصلي قبل ورود الشرع ثم يبحث عن الأدلة السمعية المغيرة. فينظر أول شيء في الإجماع، فإن وجد في المسألة اجماعا ترك النظر في الكتاب والسنة فإنهما يقبلان النسخ، والإجماع لايقبله، فالإجماع على خلاف ما في الكتاب والسنة دليل قاطع على النسخ، إذ لا تجتمع الأمة على الخطإ. ثم ينظر في الكتاب والسنة المتواترة، وهما على رتبة واحدة، لأن كل واحد يفيد العلم القاطع. ولا يتصور التعارض في القطعيات السمعية إلا بأن يكون أحدهما ناسخا، فما وجد فيه نص عن كتاب أو سنة متواترة أخذ به، وينظر بعد ذلك إلى عمومات الكتاب وظواهره، ثم ينظر في مخصصات العموم من أخبار الآحاد ومن الأقيسة، فإن عارض قياس عموما أو خبر واحد عموما فقد ذكرنا ما يجب تقديمه منها فإن لم يجد لفظا نصا ولا ظاهرا نظر إلى قياس النصوص فإن تعارض قياسان أو خبران أو عمومان طلب الترجيح، فإن تساويا عنده توقف على رأي وتخير على رأي آخر." (3).

فالترتيب لديه هو مقتضى القاعدة التي تنفي التشريع قبل وروده، ثم الأدلة المخالفة لهذا المقتضى وفيها أيضا يرجع إلى الإجماع أولا، وإلا فإلى النصوص المتواترة وبعدها إلى العمومات الكتابية ثم المخصصات، والأرجح إلى الأقيسة، وعند التعارض يطلب الترجيح ومع التساوي فإما التخيير وإما التوقف.

والذي يظهر أن هناك نقاطا مبهمة في هذا الترتيب.

منها أن الإجماع -لو قلنا باستقلاليته في الدليلية- يقف إلى صف واحد من الكتاب والسنة وباقي الأدلة الاجتهادية فما معنى تخصيصه أولا بالرجوع ؟

ومنها : أن العمومات الكتابية هي على مستوى واحد من عمومات السنة فما معنى تخصيص الأولى بالذكر ؟

ومنها : إن القياس لو قلنا به فهو في رتبة واحدة مع النصوص، فلماذا التأخير؟

ومنها : أنه ما الموقف عند فقدان الأدلة الاجتهادية، أي ما هو الموقف العملي ؟ وليس لدينا أصلا دليلان متعارضان حتى نتخير أونتوقف، ثم أين مسألة الاستصحاب؟ والبراءة؟ وعلى أي حال فهناك إبهام واضح في البين.

إن هذا الأمر يتطلب دراسة موسعة حول ملاكات تقديم أي دليل على آخر، وهذه الملاكات تعرضت لها بالتفصيل المدرسة الأصولية الإمامية وإن كان الاستيعاب قد تم في مرحلة متأخرة جدا (4). وقد ذكرت أن الملاكات هي : التخصيص والتخصص والحكومة والورود، ونشير بالإجمال إلى معانيها.

التخصيص : والمراد به إخراج من الحكم مع دخول المخرج موضوعا.

التخصص : والمراد به الخروج الموضوعي الوجداني.

وهذان معروفان.

الحكومة : والمراد بها أن يكون أحد الدليلين ناظرا إلى الدليل الآخر موسعا أو مضيقا له. فمن القسم الأول ما ورد من أن الفقاع خمر استصغره الناس. ومن الثاني قوله (ص) (لا ضرر ولا ضرار) الذي يقوم بتضييق موضوع الأدلة الأولية إلى ما لا يشمل الأحكام الضررية.

الورود : والمراد به الدليل النافي للموضوع وجدانا ولكن بواسطة تعبد شرعي كتقدم دليل (لاضرر) على دليل (وجوب دفع الضرر المحتمل) في المورد الضرري.

وعبر هذه الملاكات لا أظن أننا سنختلف بعد ذلك كثيرا، ذلك أن المجتهد يبحث -أول ما يبحث- عن واقع الحكم الشرعي؛ فإذا لم يجد شيئا راح يبحث عن ما نزل بمنزلة الواقع، فإذا لم يعثر على شيء فعليه البحث عن موقفه العملي كما تحدده الوظيفة الشرعية، وإلا راح للموقف العملي كما يحدده العقل، وعند تعقد الأمر يلجأ عادة للقرعة طبق تحديداتها. وهذا الترتيب قائم على قوانين الحكومة والورود.

فالأدلة التي تكشف بلسانها عن الواقع، كالكتاب والسنة والإجماع وغيرها، مقدمة بلا ريب على الأدلة التي تكشف عن الواقع التنزيلي (أي ما هو بمنزلة الواقع)، كالاستصحاب وأصالة الصحة وقاعدة التجاوز والفراغ في الصلاة وأمثالها ؛ وذلك لأن الأولى حاكمة على الثانية ومزيلة لموضوعها تعبدا، في حين نجد أن أدلة الواقع التنزيلي مقدمة بدورها على أدلة الوظيفة الشرعية العملية كأدلة البراءة والتخيير والاحتياط، لأن هذه الأدلة أخذ في موضوعها فقدان الواقع بجميع مراتبه حتى التنزيلية. وأدلة الوظيفة العملية الشرعية مقدمة على أدلة الوظيفة العملية العقلية. وهذه الأخيرة مقدمة على أدلة القرعة لنفس ماذكرناه (5).

وما أظنه، أن الكثير من الاختلاف في مناهج الاستدلال راجع إلى عدم التركيز على ملاكات التقديم هذه، وإلا فلا مجال للاختلاف الكثير.

ومن الضروري أن ننبه هنا أن هذه الملاكات بنفسها تلعب دورها في تقديم أدلة الأحكام الثانوية كالأحكام الضررية والحرجية وأحكام (السبيل على المؤمنين) وأمثالها على أدلة الأحكام الأولية كالوضوء والصوم والحج وغيرها. وكذلك في تقديم أدلة الأحكام الولائية التي يصدرها ولي الأمر في منطقة المباحات بعناوينها الأولية على أدلة الإباحة هنا، باعتبار أن أدلة الولاية ناظرة إلى الأدلة الأولية ومقدمة عليها. وهو باب واسع من الضروري أن تتم دراسته والتأمل العميق فيه.

الموضوع الثاني : ضرورة التركيز على محل الخلاف وتنقيحه. فإن عدم التركيز قد يجر إلى بحوث طويلة نحن في غنى عنها لو حررنا محل النزاع ونقحنا نقطة الخلاف بدقة.

وإن المرء ليظفر بموارد كثيرة يتحول فيها النزاع -أحيانا- إلى خلاف لفظي لا أكثر وهذه أمثلة لذلك :

أ- **الاجتهاد** : يتحدث المرحوم الصدر في كتابه (دروس في علم الأصول. الحلقة الأولى ص 53-64) عن نزاع ممتد بين علماء الإمامية أنفسهم حول جواز (الاجتهاد) وعدمه، وكل طرف يستند إلى أدلته. إلا أن الحقيقة هي أن ما يعارضه هذا الطرف كان يختلف عما يؤمن به الطرف الآخر.

فالمعارضون له كانوا يتصورونه بمعنى أن الفقيه إذا أراد استنباط حكم شرعي ولم يجد فيه نصا من الكتاب والسنة رجع إلى اجتهاده بدلا عن النص، وهذا الاتجاه لقي معارضة كبيرة من أئمة أهل البيت والعلماء التابعين لمدرستهم وبقي مرفوضا على مدى العصور. إلا أن هذا المصطلح تطور إلى معنى آخر هو المعروف اليوم وهو "بذل الجهد في استخراج الأحكام الشرعية" وهكذا تحول من مصدر للحكم الشرعي إلى أسلوب لاستنباط الأحكام من مصادرها، ودخلت في هذه العملية كل طريقة يستخدمها الفقيه لتحديد الحكم الشرعي وحتى الموقف العملي تجاه الشريعة وعاد الاجتهاد مرادفا للاستنباط وهذا الاختلاف بين المعنيين عندما يتوضح فلن يعود هناك مجال للنزاع.

ب- **القياس** : وقد امتد النزاع حوله منذ ولادته كأصل في أذهان الفقهاء وحتى اليوم. إلا أننا نعتقد أن هناك خلطا بين تعاريف القياس والعلة أدى إلى كثير من النزاع الذي لا مبرر له أحيانا.

فالتعريف الذي اختاره الآمدي هو "الاستواء بين الفرع والأصل في العلة المستنبطة من حكم الأصل." (6). وتعريف ابن الهمام له هو : "مساواة محل لآخر في علة حكم له شرعي لا تدرك بمجرد فهم اللغة." (7)؛ وهما من أسلم التعاريف.

وهناك تعريف آخر شاع قديما وانتفى تقريبا، وهو التماس العلل الواقعية للاحكام الشرعية من طريق العقل"، عبر عنه صاحب (أصول الفقه المقارن ص 307) بأنه كاد أن يهجر على ألسنتهم."

أما المعنى الأول فلا أتصور أن فقيها يرفضه فإذا فرضنا القطع بالاستواء والقطع بالعلة المستنبطة فأين الشك في النتيجة التي تنقل معها الحكم من الأصل إلى الفرع. ثم هذه العلة ذكروا لها أوصافا هي أن تكون "وصفا ظاهرا منضبطا جعله الشارع علامة على الحكم مع مناسبته له" (8) ثم أضافوا لها شرطا آخر هو "أن لا يكون الوصف قاصرا على الأصل" وقد رأى الأستاذ عبد الوهاب خلاف أنه لا ينبغي أن يكون موضعا لخلاف (9). ثم فرقوا بينها وبين السبب والحكمة والشرط.

وإذا تمت كل هذه الأمور في العلة فهل يبقى شك في دوران الحكم معها وجودا وعدما؟ نعم يقع الكلام في حصول القطع الوجداني أو ثبوتها بدليل تعبدي وهذا أمر يتبع الموارد المختلفة. وليس في النصوص الثابتة عند الإمامية ما يرفض مثل هذا القياس بل لا يمكن رفضه لحجية القطع الذاتية التي لا تقبل الإثبات أو النفي.

ج- **الاستحسان** : وهنا أيضا نجد الأقوال المتضاربة والتعريفات المتكثرة بشكل غريب. وقد نقل أن الإمام الشافعي قال : "من استحسن فقد شرع" !! (10). كما ذكر أن الإمام مالك قال : "الاستحسان تسعة أعشار العلم." !! (11). وهذا أمر يدعو للتساؤل والتأمل : فكيف يتم هذا البون الشاسع والثقافة الأصولية واحدة ؟

ولكننا عندما نعود إلى التعاريف المختارة نجد بعضها في الواقع تشريعا محرما فيصدق عليها قول الإمام الشافعي من قبيل أن يقال في الاستحسان إنه "دليل ينقدح في نفس المجتهد لايقدر على التعبير عنه." (12). أو أنه "ذوق فقهي لا تدرك أبعاده." أو أنه "ترك القياس والأخذ بما هو أوفق الناس"

وما إلى ذلك، فإنها تجعل الدين تابعا للأذواق والانقداحات النفسية والظنون التي لا يعلم مصدرها، وهذا ما يجب أن يتنزه عنه الفقهاء. في حين أنه يعود عملية مهمة جدا عندما يعبر عنه بأنه "العمل بأقوى الدليلين"، كما قال الشاطبي من المالكية، أو "العدول بحكم المسألة عن نظائرها لدليل شرعي خاص"، كما ذكر الطوفي من الحنابلة في مختصره. أو "العدول عن موجب قياس إلى قياس أقوى منه، أو هو تخصيص قياس بدليل أقوى منه" كما ذكره البزودي من الحنفية (12).

وهذا المعنى لايمكن أن يعارضه فقيه، فهو في الواقع يعني اتباع الدليل الأقوى عند التعارض، والأهم عند التزاحم. وهل في هذا اختلاف، بل هل يمكن أن يستغني عنه فقيه؟ أليس هذا إذن تسعة أعشار العلم كما يقول الإمام مالك؟

إن الاستحسان بهذا المعنى لا يختلف فيه الفقهاء إماميين كانوا أم غيرهم. يقول السيد الحكيم : "إن كان المراد بالاستحسان هو خصوص الأخذ بأقوى الدليلين فهو حسن ولا مانع من الأخذ به." (13).

والمصالح المرسلة أيضا لاخلاف فيها إن كانت كما يعرفها الأستاذ معروف الدواليبي قائلا : "والاستصلاح في حقيقته هو نوع من الحكم بالرأي المبني على المصلحة، وذلك في كل مسألة لم يرد في الشريعة نص عليها، ولم يكن لها في الشريعة أمثال تقاس بها. وإنما بني الحكم فيها على ما في الشريعة من قواعد عامة برهنت على أن كل مسألة خرجت عن المصلحة ليست من الشريعة بشيء. وتلك القواعد هي مثل قوله تعالى «إن الله يأمر بالعدل والإحسان»، وقوله عليه الصلاة والسلام : «لا ضرر ولا ضرار»." (14).

فإذا قطعنا بأن المورد مورد ضرري طبقنا عليه القاعدة الكبرى (لا ضرر ولا ضرار)، وكذلك الأمر في مورد العدل والإحسان وهل في هذا الموضوع شك من هذه الناحية؟

والغريب أن نشاهد الخلاف حول الاستصلاح واسعا جدا، إلا أننا نعتقد أن الخلاف لاينصب على مورد واحد ليكون خلافا واقعيا. وإلا فلا يبقى مجال للشك في الحجية إذا آمنا مثلا -كالغزالي- بأنه إذا توفرت أمور ثلاثة كشفت عن وجود الحكم، وهي : "كون المصلحة ضرورية، وكونها قطعية وكونها كلية." (15). إلا أن الكلام كله في كيفية تحصيل هذه الأمور.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن هناك نوعا من الأحكام هو الأحكام الحكومية الولائية إنما يقوم على أساس إدراك الحاكم للمصالح، ولا يشترط فيه الإدراك القطعي، ولكنها على أي حال تنحصر في دائرة صلاحيات الحاكم الشرعي. وللحديث في هذا المجال تفصيل يذكر في محله.

الموضوع الثالث : ضرورة إخراج بعض ما ادعي كونه من الأصول من دائرتها.

فهناك الكثير من الأصول التي ادعيت، لكنها-إما لعدم توفرها على الحجية، أو لكونها تفقد مشخصات كونها أصولا برأسها وإنما تشكل تعبيرا عن أصول أخرى- يجب حذفها من قائمة الأصول. و أمثلتها كثيرة. و منها ما أشرنا إليه من قبل عند الحديث عن الاستحسان بتعريفه المرفوض، بل وحتى بتعريفه المقبول وهو تقديم أقوى الدليلين، لأن ذلك يعني العمل بالدليل الأقوى كتابا كان أو سنة أو إجماعا أو قياسا وهذا يخرج الاستحسان عن كونه دليلا وأصلا برأسه.

وكذلك ما نشاهده في بحث المصلحة المرسلة، فإن المصالح إذا استفيدت من النصوص كان العمل بالمصلحة عملا بالنص فتلحق بالسنة. وأما إذا لوحظت على أساس إدراك المصالح بالعقل القطعي فإنها أيضا تدخل تحت أصل العقل، ولا تشكل أصلا برأسه. ونفس هذه النقطة نلمحها في موضوع العرف. فإن مجالاته تنحصر في أمور أربعة هي :

١- ما يكتَشف منه حجية أصل من أصول الفقه

كالاستصحاب.

٢- ما يكتشف منه حكم شرعي فيما لا نص فيه كعقد الاستصناع.

٣- ما يرجع فيه لتشخيص بعض المفاهيم كلفظ الإناء والصعيد والقرء.

٤- ما يرجع فيه لاستكشاف مرادات المتكلمين كالدلالات الالتزامية.

ومن الواضح -مع هذا- أنه لا يشكل أصلا برأسه، بل يرجع إلى أحد الأصول الأخرى (16).

وبعد، فهذه أمور ثلاثة وجدنا أن من الضروري أن تدرس حتى يتم من خلال ذلك تقارب حقيقي بين الآراء وتفاهم أكبر على موارد النزاع.

وفقنا الله تعالى جميعا للعمل بكتابه الكريم وسنة رسوله الكريم، إنه السميع المجيب.

الهوامش

(1) الفتاوى الواضحة للسيد محمد باقر الصدر ص 5.

(2) أصول الفقه المقارن ص 19.

(3) المستصفى الجزء 1 ص 392.

(4) فقد قال صاحب (أصول الفقه) العلامة المظفر رحمه الله (ج 3 ص 190) إن مصطلحي «الحكومة» و «الورود» هما من مبتكرات الشيخ الانصاري الكبير رحمه الله المتوفى سنة 1281، في حين أرجعه المرحوم الحلي إلى طبقة أسبق منه كما ذكر السيد الحكيم في أصول الفقه المقارن ص 87.

(5) راجع "أصول الفقه" للمظفر (ج 3 ص 192-195)، و "أصول الفقه المقارن" (ص 85-92)، و باقي الكتب الأصولية من قبيل "دروس في علم أصول الفقه" للمرحوم الصدر و غيرها.

(6) الأحكام ج 3 ص 4.

(7) سلم الوصول ص 374.

(8) أصول الفقه المقارن ص 308 (نقلا عن مباحث الحكم ج 1 ص 136).

(9) علم أصول الفقه ص 87.

(10) فلسفة التشريع الإسلامي ص174. و انظر في المستصفى ج 1 ص 27 طبعة المطبعة الأميرية.

(11) المدخل إلى الفقه الإسلامي ص 257.

(12) مصادر التشريع ص 58.

(13) أصول الفقه المقارن ص 377.

(14) المدخل إلى أصول الفقه ص 284.

(15) المستصفى ج 1 ص 296 المطبعة الأميرية.

(16) راجع أصول الفقه المقارن في الصفحات 363، 403، 423.

(تتمة مقال الدكتور سعيد رمضان البوطي)

الهوامش.

1) "تهذيب الأسماء اللغات" للإمام النووي : 76/2.

2) "طبقات الشافعية" : 365/3.

3) "وفيات الأعيان" : 2/ 362.

4) "شذرات الذهب" : 303/2.

5) ت"بيين كذب المفتري" ص 112 و 113.

6) انظر "البداية و النهاية" لابن كثير : 288/7.

7) انظر "أبو حنيفة" لأبي زهرة : 66 و ما بعدها.

8) "مالك"، لأبي زهرة : 104.

9) انظر "اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية" لكاتب هذا البحث، ص 29 و 40.

10) انظر تهذيب التهذيب : 250/9 و 102/2، و شذرات الذهب : 149/1 و 220.

الاجتهاد عند الزيدية

بقلم : القاضي اسماعيل بن علي الأكوع

للمذهب الزيدي مزية حميدة، ومنقبة مشكورة، وهي فتح باب الاجتهاد لمن حذق علومه، وأتقن فنونه. ولا غرابة في ذلك، فقد كان زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم -الذي نسب إليه هذا المذهب- من كبار أئمة الاجتهاد، وله فقهه المدون المعروف الذي لا يخرج عن نطاق ما كان عليه السلف الصالح من الاقتصار على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ خلا أن الزيدية خالفت أهل السنة في أمرين. أحدهما نزوعها في العقيدة إلى الاعتزال تبعا لزيد بن علي الذي كان قد أخذه عن واصل بن عطاء رأس المعتزلة حينما اجتمع به في رحلته العلمية إلى البصرة. والأمر الآخر الإمامة التي هي مدار اهتمام فرق الشيعة، ومحور عقائدهم السياسية، فقد كان زيد بن علي يرى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه أحق بها بعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لمكانته وقربه منه نسبا وصهرا، وأن تكون بعده في ولديه الحسن ثم الحسين، ثم في من تناسل منهما إلي يوم القيامة. ومع هذا فإن زيدا كان يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل لقولة : " كان علي بن أبي طالب رصي الله عنه أفضل الصحابة، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة، وتطبيب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريبا، وسيف أمير المؤمنين علي عن دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد. فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه باللين والتؤدة، والتقدم بالسن، والسبق في الإسلام، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا ترى أنه، أي أبا بكر، لما أراد -في مرضه الذي مات فيه- تقليد الأمر عمر بن الخطاب زعق الناس، وقالوا : لقد وليت علينا فظا غليظا، فما كانوا يرضون بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب لشدته وصلابته، وغلظه في الدين، وفضاضته على الأعداء حتى سكنهم أبو بكر بقوله : "لو سألني ربي لقلت : وليت عليهم خيرهم." (1).

وإذا كان رأي زيد بن علي أن عليا أولى بالإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحق بها من الخلفاء الذين سبقوه، وهم من هم عدلا وزهدا وورعا، وتمسكا بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنفسهم وفي أمته، فإنه يعتقد -من باب أولى- أنه أحق بها من خلفاء بني أمية الذين حولوا الخلافة إلى ملك عضوض.

هذا وقد اشترط في الإمام الخروج على الظالم عند إعلان دعوته، وهو ما فعله حينما أعلن الخروج على حكم هشام بن عبد الملك، ولكنه خذل من قبل أكثر أتباعه الذين أصروا عليه بإعلان تبرئه من الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلم يوافقهم على ذلك، فرفضوا اتباعه، والسير وراءه، فسموا

الرافضة. وأما الزيدية الذين تمسكوا بعقيدته في الشيخين، فقالوا بقوله وحاربوا معه (2)، وواجه بهم خصمه حتى استشهد في كناسة الكوفة في الثاني من صفر سنة 738/122 (3).

ثم لم ينتظم للزيدية بعد ذلك أمر حتى ظهر في خراسان الناصر الأطروش سنة (844/230) فدعا الناس دعوة إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي فدانوا بذلك، ونشؤوا عليه، وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرين، ولكنها مالت بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول، وطعنت في الصحابة طعن الإمامية (4) ولا سيما بعد ظهور الدولة البويهية (320-447 هـ/ 932-1055).

وظهر في اليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي الذي قدم إليها من الحجاز سنة (897/274) فدعا إلى نفسه بالإمامة، وتلقب بالهادي، وكان عالما مجتهدا كبيرا، أخذ الأصول- علم الكلام- عن شيخه أبي القاسم البلخي المعتزلي، وأقواله في الأصول متابعة له في الغالب. وأما في الفروع فقد استقل فيها باجتهاده، فخالف زيد بن علي في مذهبه، ولم يتقيد بأقواله التي تضمنها (مجموع الفقه الكبير) لزيد بن علي و(الجامع الكافي) لأقوال زيد بن علي، ولم يبق لمذهب زيد بن علي الأول في الأصول والفروع منهم متابع (5).

وقد عرف مذهب الهادي في اليمن بالمذهب الزيدي لأن الهادي وأتباع مذهبه يقولون بإمامة زيد بن علي، ووجوب الخروج على الظلمة، ويعتقدون فضله وزعامته، ويحصرون الإمامة في من قام ودعا من أولاد الحسنين، وهو جامع لشروط الإمامة المدونة في كتبهم، فمن قال بإمامته فهو زيدي -وإن لم يلتزم مذهبه في الفروع- فإن أكثر الزيدية على رأي غيره في المسائل الاجتهادية، والمسائل النظرية، وكذلك أئمتهم كالقاسم والهادي والناصر فهم ينتسبون إلى زيد بن علي مع أنهم كانوا مثله في الاجتهاد، ويخالفونه في كثير من المسائل. (6) ويجمع مذهبهم تفضيل علي على سائر الصحابة، وأولويته بالإمامة، وقصرها من بعد الحسنين في البطنين، واستحقاقها إنما يثبت بالفضل والطلب لا بالوراثة. ويرون القول بالتوحيد، والعدل، و الوعد والوعيد، كالمعتزلة. (7) هذا ولم يكد تمر مائة عام على قدوم الإمام الهادي يحيى بن الحسين إلى اليمن حتى افترق أتباع مذهبه إلى ثلاث فرق كما صرح بذلك الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى سنة 1432/840 بقوله : وافترق متأخرو الجارودية إلى مطرفية (8) وحسينية (9) ومخترعة (10) ثم ذكر أن المتأخرين انقسموا إلى قاسمية (11) وناصرية (12) وكان يخطيء بعضهم بعضا حتى خرج المهدي أبو عبد الله الداعي (13)، وألقى إليهم أن "كل مجتهد مصيب"، فرجعوا إلى قوله بعد مناظرات كثيرة.

وكانوا من قبل يعتقدون أن المصيب في الاجتهاديات واحد، والحق معه، إلى زمن الإمام المتوكل (14) أحمد بن سليمان. وكذا زيدية الجيل يعتقدون ذلك إلى زمن الإمام أبي عبد الله الداعي، فانفتح منذ ذلك الوقت باب الاجتهاد، فكان أن ولج هذا الباب عدد غير قليل من علماء الزيدية، ممن هيأه الله لصعود مدارج الاجتهاد فاشتغلوا بعلوم القرآن وتفاسيره ودراسة أمهات الحديث وعلومه فوجدوا في الكتاب العزيز، وصحيح السنة النبوية ما لايحتاج معهما إلى غيرهما من محض الرأي، فنبذوا التقليد ودعوا المقلدين إلى العمل بأحكام الكتاب والسنة ليكونوا كما كان عليه السلف الصالح مع أن الغالبية العظمى من المسلمين في صدر الإسلام كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون، ولكنهم مع ذلك كانوا يفهمون ما يتلى عليهم من القرآن الكريم ويفهمون ما يسمعون من السنة النبوية، وذلك قبل أن تظهر المذاهب الدينية والسياسية التي فرقت المسلمين شيعا وطوائف.

وقد برز من هؤلاء العلماء أئمة في الاجتهاد المطلق تجاوزت شهرتهم حدود أقاليم اليمن على تفاوت فيما بينهم في درجات الاجتهاد، وأبرزهم على الإطلاق هو الإمام محمد ابن إبراهيم الوزير المتوفي سنة (1436/840) صاحب كتاب (العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم) والحسن بن أحمد الجلال المتوفى سنة (1673/1084) صاحب كتاب (ضوء النهار المشرق على صفحات الأزهار) وصالح بن مهدي المقبلي المتوفى بمكة سنة (1696/1108) صاحب (العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ) وذيله (الأرواح النوافخ وآثار إيثار الآباء والمشايخ) و (الأبحاث المسددة في فنون متعددة) ومحمد بن اسماعيل الأمير الصنعاني المتوفى سنة (1768/1182) صاحب (سبل السلام شرح بلوغ المرام في أدلة الأحكام). ومحمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة (1834/1248) صاحب (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار). ولم أخص هؤلاء بالذكر إلا لأن الناس انتفعوا بمؤلفاتهم أكثر من غيرهم وإلا فإن في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة -كما يقول شيخ الإسلام الشوكاني- عددا يتجاوز الوصف يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة، ويعتمدون على ما صح في الأمهات الحديثية وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المتمثلة على سنة سيد الأنام، ولايرفعون إلى التقليد رأسا، لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها، بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله، مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات على الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة، وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية. ثم أضاف الإمام الشوكاني في قوله: "وإني لأكثر التعجب من جماعة من أكابر العلماء المتأخرين الموجودين في القرن الرابع وما بعده كيف يقفون على تقليد عالم من العلماء، ويقدمونه على كتاب الله وسنة رسوله مع كونهم قد عرفوا من علم اللسان ما يكفي في فهم الكتاب والسنة بعضه، فإن الرجل إذا عرف من لغة العرب ما يكون به فاهما لما يسمعه منها صار كأحد الصحابة الذين كانوا في زمنه صلى الله عليه وسلم، وترك التعويل على محض الأراء، فكيف بمن وقف على دقائق اللغة وجلائلها إفرادا وتركيبا وإعرابا وبناء، وصار في الدقائق النحوية والصرفية، والأسرار البيانية والحقائق الأصولية بمقام لا يخفى عليه من لسان العرب خافية، ولا يشذ عنه منها شاذة ولا فاذة، وصار عارفا بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير كتاب الله، وما صح عن علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى زمنه، وأتعب نفسه في سماع دواوين السنة التي صنفها أئمة هذا الشأن في قديم الأزمان، وفيما بعده. فمن كان بهذه المثابة كيف يسوغ له أن يعدل عن آية صريحة أو حديث صحيح إلى رأي رآه أحد المجتهدين حتى كأنه أحد العوام الأعتام الذين لا يعرفون من رسوم الشريعة رسما، فيالله العجب إذا كانت نهاية العالم كبدايته، وآخر أمره كأوله، فقل لي : أي فائدة لتضييع الأوقات في المعارف العلمية؟ فإن قول إمامه الذي يقلده هو كان يفهمه قبل أن يشتغل بشيء من العلوم سواه كما نشاهده في المقتصرين على علم الفقه فإنهم يفهمونه بل يصيرون فيه من التحقيق إلى غاية لا تخفى عليهم منه شيء، ويدرسون فيه ويفتون به وهم لا يعرفون سواه، بل لا يميزون بين الفاعل والمفعول." ثم ختم كلامه بقوله : "والذي أدين لله به أنه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف وشطر من مهمات كليات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز، ثم إذا انضم إلى ذلك الاطلاع على كتب السنة المطهرة التي جمعها الأئمة المعتبرون، وعمل بها المتقدمون

والمتأخرون كالصحيحين، وما يلتحق بهما مما التزم فيه مصنفوه الصحة أو جمعوا فيه بين الصحيح وغيره مع البيان لما هو صحيح، ولما هو حسن ولما هو ضعيف وجب العمل بما كان كذلك من السنة، ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأي سواء أكان قائله واحدا أم جماعة أم الجمهور. فلم يأت في هذه الشريعة الغراء ما يدل على وجوب التمسك بالآراء المتجددة عن معارضة الكتاب أو السنة، فكيف بما كان منها كذلك بل الذي جاءنا في كتاب الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)، (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) إلى غير ذلك، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد." فالحاصل أن من بلغ في العلم إلى رتبة يفهم بها تراكيب كتاب الله، ويرجح بها بين ما ورد مختلفا من تفسير السلف الصالح ويهتدي به إلى كتاب السنة التي يعرف بها ما هو صحيح، وما ليس بصحيح فهو مجتهد لا يحل له أن يقلد غيره كائنا من كان في مسألة من مسائل الدين، بل يستروي النصوص من أهل الرواية، ويتمرن في علم الدراية، ويقتصر من كل فن على مقدار الحاجة. والمقدار الكافي من تلك الفنون هو ما يتصل به إلى الفهم والتمييز." (15)

هذا وقد انتشرت مؤلفات هؤلاء العلماء المجتهدين ولا سيما كتابي (سبل السلام) و(نيل الأوطار) في العالم الإسلامي، وصارا مرجعين لا غناء عنهما لشيوخ العلم وطلابه والباحثين المهتمين بدراسة فقه السنة النبوية في المدارس والمعاهد والجامعات الإسلامية. كما ترجما إلى بعض لغات المسلمين من غير العرب للذين لا يحسنون قراءة اللغة العربية، ذلك لأن الذين تيسر لهم قراءتهما من المسلمين على اختلاف مذاهبهم وجدوا فيهما ما أزال من نفوسهم الفوارق المذهبية، وجمعهم على كلمة سواء. وهذا ما تسعى إليه هذه الندوة المباركة.

ومن المصادفات العجيبة أن الشيخ محمد مصطفى المراغي، شيخ الجامع الأزهر الشريف الأسبق، وجه رسالة إلى الملك فؤاد الأول ملك مصر في صفر سنة 1347 أغسطس سنة 1928 بشأن إصلاح نظام التعليم بالجامع الأزهر والمعاهد الدينية، في الوقت الذي كان يطبع فيه كتاب (الدراري المضية شرح الدرر البهية) للإمام الشوكاني في فقه السنة، فاقتبس ناشر هذا الكتاب فقرة من رسالة الشيخ المراغي وهي : "يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة ، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها، والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف الصالح من الفقهاء." ثم عقب الناشر على هذه الرسالة بقوله : "وهذه الرغبة تنطبق على منهج هذا الكتاب في الرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح من الفقهاء، وفي ذلك إحياء لأحكام الشرع الشريف في معاملات الناس وشؤونهم الحاضرة ورجوع إلى الكتاب والسنة (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) الآية، وبراءة من تعطيل أحكام الله في أرضه"، ثم قال : "فمن أراد أن ينهج منهج السلف، ويعمل بنصيحة الإمام الأكبر فعليه بدراسة هذا الكتاب، وما نسج على منواله ليعرف كيف يأخذ أحكام الشرع فيما استجد ويستجد من المعاملات، آمنا من التخبط، فإن الذي يخشى من فتح باب الاجتهاد هو أن يقول كل في دين الله تعالى برأيه وهواه. نعوذ بالله من ذلك وبه التوفيق." وبهذا الدعاء أختم كلمتى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المراجع

1) شرح رسالة الحور العين 154، الفصل في الملل والأهواء والنحل 63/4، الملل والنحل 155/1.

2) سير أعلام النبلاء 390/5.

3) تاريخ الطبري 160/7-173، 180-191، مروج الذهب 218/3، الكامل 84/5-89، الحدائق الوردية 143/1.

4) المستطاب.

5) المستطاب.

6) هداية الراغبين، الرحيق.

7) المنية والأمل 96.

8) المطرفية : نسبة إلى مطرف بن شهاب، من أعلام أواخر المائة الرابعة، وأوائل المائة الخامسة للهجرة. كانوا من شيعة الإمام الهادي وأتباع مذهبه، ويعتقدون الحق في الاجتهاديات مع واحد، فلذلك حظروا الخروج عن مذهبه، ولما تبين لهم أن الإمام المنصور عبد الله بن حمزة -المتوفى سنة 614- قد خالف الهادي في بعض مسائل الفروع أنكروا عليه فكان ذلك من دواعي الشقاق بينه وبينهم، مع أنه القائل : "إننا نهاب نصوص الهادي كما نهاب نصوص القرآن." كما أظهروا القول بخلق العناصر الأربعة : الماء والتراب والهواء والنار، وبالانفعال في ما عدا ذلك لأنهم يعتقدون أن التأثير لله في أصول الأشياء دون فروعها، كما خالفوا الزيدية في أهم مبادئهم الأصولية وهي الإمامة، فلم يشترطوا فيها النسب، وجوزوها في جميع الناس، فاستوجب هذا الأمر أن حكم عليهم الإمام عبد الله بن حمزة بالكفر بالالتزام، وشن عليهم حربا لا هوادة فيها حتى أبادهم على بكرة أبيهم كما أتلف تراثهم وأخرب مساجدهم لأنها في نظره مساجد ضرارية.

9) الحسينية : نسبة إلى الحسين بن القاسم بن علي العياني دعا إلى نفسه بالإمامة سنة (1002/393)، وتلقب بالمهدي، وقد زعم أنه المهدي المنتظر، وله آراء ومعتقدات باطلة، احترب مع قبيلة همدان حتى قتلته سنة (404-1013) واعتقد أتباعه أنه حي لم يمت، ولا يموت أبدا حتى يملأ الأرض عدلا.

10) المخترعة : فرقة عرفت بهذا الإسم لقولهم باختراع الله الأعراض في الأجسام، وأنها لا تحصل بطبائعها كما تقول المطرفية، وكان رئيسهم في عقيدتهم علي بن شهر من قرية بيت أكلب من حقل البون في الشمال من صنعاء، وكان بينها وبين المطرفية نزاع شديد، وحروب عنيفة حتى تغلبت على يد الإمام عبد الله بن حمزة عليها.

11) القاسمية : نسبة إلى القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بن الحسن بن الحسن، دعا إلى نفسه بالكوفة سنة 220، ولم تنجح دعوته فسكن الرس بجوار المدينة فلقب بالرسي توفي سنة 242.

12) نسبة إلى الناصر الحسن بن علي الملقب بالاطروش، دعا إلى نفسه بالإمامة في الجيل وتوفي سنة 304.

13) أبو عبد الله الداعي : هو الإمام المهدي محمد بن الحسن، بويع بالإمامة بهوسم، ثم كاتبه أهل الدين فوصل إليهم سنة 353، ثم قصد هوسم فاستولى عليه بعد محاصرة كثيرة وأسر فرارا، وهو الذي أظهر في الدين أن "كل مجتهد مصيب" توفي بهوسم مسموما سنة 360، وقيل سنة 359.

14) الإمام المتوكل أحمد بن سليمان، أعلن دعوته من الجوف سنة 536، وهو من كبار علماء الهادوية، توفي سنة 566.

15) البدر الطالع 2/ استطراد في ترجمة محمد بن ابراهيم الوزير.

التقريب بين المذاهب الإسلامية

د. يوسف أحمد الشلب

ملف المذهبية حافل بعناصر الثراء وسحابات الحزن. فمن حيث هو فكر حر، صال فيه الفقهاء وجالوا، وتعرضوا لكل كبيرة وصغيرة في حياة المسلمين، عباداتهم ومعاملاتهم، فدرسوها وقلبوها على أدلة الكتاب والسنة واستخلصوا منها ما رأوه تعبيرا عن مصالح أزمنتهم ودرءا لمفاسدها، من حيث هي باب ووعاء لكل هذا فإن المذهبية تعد مصدرا لكنز ثمين حصلته الأمة بكد علمائها وعقولهم النيرة والجبارة.

ومن حيث هي باب نفذ منه التحزب والتعصب وما جره على واقع المسلمين من فتن وويلات، أو باب ضلل بعض أنصاف المتعلمين وخفيفي الصدور والعقول، عندما بالغوا فيما أسميناه فكرا حرا قابلا للمراجعة والنقد، وتعبدوا بما هو مجرد اجتهاد لا يلزم، فمن حيث هو باب لمثل هذا، فقد ظلت المذهبية مصدرا لتلك السحابات القاتمة والحزينة التي تزحف على سماء أمتنا بين الحين والآخر. وقبل أن نمضي في عرض الموضوع يحسن بنا أن نبدأ بضبط المصطلح والتعريف به. فالمذهبية عمل فكري عماده المنهج الذي يقوم على أدلة الشرع من الكتاب والسنة لا يخاطب بشرا بذاتهم ولكنه يتجه إلى العقل الإسلامي أو الإنساني بعامته، بينما الطائفية قيمة عمادها البشر الذين يلتقون حول فكر بذاته، ويعتبرون كل جماعة لاتعتنق هذا الفكر ليست منهم.

المذهبية بهذا التعريف تعد قيمة معنوية بينما الطائفية تعد قيمة مادية. وإذا كانت المذهبية من حيث هي فكر إنساني تستطيع أن تعيش دون أن ترتبط بطائفة بذاتها، فإن العكس غير صحيح فالطائفية لا قوام لها بغير المذهبية باعتبار أن التجمع البشري إذا أريد له أن يتم فلابد له من فكر يؤلف قاعدة للالتقاء بصرف النظر عن كون هذا الفكر يعبر عن قناعات ومصالح، أو يعبر عن الطموحات والأهواء.

فالمذهب باق -إذا دون بطبيعة الحال-، لكن الطائفية قد يطول عمرها وقد يقصر، وما أكثر الطوائف التي اندثرت في حياة الجماعات الإسلامية.

هنا أيضا تتعين التفرقة بين المذهبية والبدعة وهي التفرقة التي حرص بعض فقهائنا على إثباتها بالتمييز بين أهل المذاهب وبين أهل الأهواء والبدع. فالمذهبية تراث فكري يقوم أساسا على الكتاب والسنة، وهي تفرقة حرص على إبرازها كل من ابن حزم والشهرستاني عندما عالجا في كتابيهما الفصل بين الملل وبين الأهواء والنحل.

ومن المفيد أن نذكر بأن المذهبية مصطلح طاريء على مسيرة الفكر الإسلامي، بمعنى أنه لم يلازم تلك المسيرة منذ بدايتها، ولكنه تبلور وأخذ مكانه في الساحة الإسلامية فيما تلا القرن الرابع الهجري عندما انحسرت موجة الاجتهاد وظهر التقليد وشاعت مدارسه.

قبل هذه المرحلة لم تعرف الأمة الاسلامية مصطلح المذهبية

بالصيغة التي تتلقاها الأذهان الآن. وإنما كان هناك مجتهدون عديدون اختلفت آراؤهم واتفقت، وكانت حولهم جماعات من رفاق الفكر والتلاميذ، ولكن آراءهم لم تعرف طريقها إلى عامة الناس ولم يثر الجدل والنزاع بينها إلا في تلك المرحلة التي أعقبت القرن الرابع الهجري. الفرق السياسية سبقت المذاهب الفكرية وهي التي أطلت برأسها على الواقع الإسلامي بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وتعد الفتنة الكبرى مفتاحا للخلافات السياسية والعقائدية، وكان من نتائج الصراع الفكري السياسي أن تعددت الفرق مظهر الخوارج والشيعة وسمي فريق الوسط باسم أهل السنة والجماعة.

منهج التوحيد القرآني

الأمة الإسلامية أمة واحدة ربها واحد ودستورها واحد وقبلتها واحدة (أن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) [سورة المؤمنين الآية 42]. وقد وضع القرآن للمسلمين منهجا يضمن وحدتهم العقدية. والتشريعية ويحميهم من التفرق والخلاف. ويقوم هذا المنهج على الأسس الآتية :

أولا : تمام الدين وختم الرسالات.

فقد قرر القرآن بكل وضوح وجلاء أن الله أكمل الدين وأتم النعمة ورضي الإسلام دينا ومنهج حياة لأمة الإسلام البشرية جمعاء (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا). فهذا الدين تام، لا نقص فيه معصوم لا خطأ فيه، شامل لكل ما في الحياة ولكل ماهو صالح للإنسان : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) [سورة النحل الآية 89].

وبمحمد ختمت الرسالات السماوية فلا نبي بعده (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) [سورة الأحزاب الآية 40].

وبناء على ماتقدم فلا حاجة للمسلمين إلى شرع جديد ولا إلى رسول جديد، ولا نائب له، ولا وصي معين بذاته يكون قيما على رسالة الإسلام أو حافظا لها أو مستأمنا عليها فهذه مسؤولية الجماعة الإسلامية كلها. (إنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون) [سورة الزخرف الآية 44].

ثانيا : القرآن الكريم هو مصدر العقيدة والشريعة.

فالقرآن هو كلمة السماء الأخيرة إلى الأرض، وكتاب الإسلام خالد ومصون وثابت متواتر، تكفل الله بحفظه من التغيير والتبديل (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [سورة الحجر الآية 9]، وهو النص المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد أمر الله باتباعه والعمل بتعاليمه والاحتكام إليه في كل الأمور، فمنه ينبغي أن تستمد مبادىء العقيدة ومنه يجب أن تؤخذ أحكام الشريعة.

ثالثا : السنة الصحيحة هي التي تبين القرآن وتفسره.

لقد جاءت أوامر القرآن مجملة عامة وأوكل الله إلى نبيه مهمة تفصيلها وتبيانها (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) ولقد حذر القرآن من مخالفة بيان رسول الله والإعراض عن سنته المتواترة وهديه الرشيد (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [سوة النور من الآية 63].

رابعا : رد الأمور المتنازع فيها إلى القرآن والسنة.

لقد علم الله تعالى أن من طبيعة البشر الاختلاف، لذلك جعل لهم مرجعا يحتكمون إليه، ليعلم الفرق بين الحق والباطل، هو كتاب الله وسنة رسوله ففيهما الخير والصلاح والهدى والرشاد (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلا) [سورة النساء من الآية 59].

خامسا : البعد عن الاختلاف والتفرق وعدم الشروع فيه.

لقد نهى القرآن الكريم عن التفرق في الدين والاختلاف في أصول العقيدة وتمزيق المجتمع وتحويله إلى فرق وأحزاب وطوائف متناحرة. (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) [سورة الشورى من الآية 13].

وجعل التفرق في الدين مساويا للشرك بالله (أقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين). وبين القرآن أن الذين يفرقون الأمة شيعا وأحزابا لا علاقة لهم بالإسلام ولا يحق لهم الانتساب إلى رسول الإسلام وهو منهم براء. (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء).

سادسا : التفقه في الدين.

وبما أن الجهل هو أحد أسباب التفرق والتشتت فقد دعا القرآن المسلمين إلى التفقه في الدين وتدبر القرآن وفهم معانيه وإدراك مقاصده ومراميه (وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) [سورة التوبة الآية 122].

سابعا : البعد عن الهوى.

يدعو القرآن إلى التجرد من الهوى والتنزه عن الغرض لأن اتباع الهوى ضلال وانحراف وفرقة وشقاق (فاحكم بينهم بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب).

ثامنا : البعد عن التقليد الأعمى.

إن القرآن الكريم قد ذم التقليد الأعمى الذي يفتقر إلى الوعي والبصيرة ويقوم على المحاكاة من غير تدبر أو تفكير ويدين المقلدين الجامدين الذين جعلوا ميراث الآباء والأجداد دينا وعقيدة بالرغم من فساد عقيدتهم وانحرافهم وقد عطلوا عقولهم وأغلقوا باب الهداية في وجوههم. (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون).

تاسعا : تحرى الحق وبناء الأحكام على الأدلة.

القرآن دائما يطالب ببناء العقيدة على البرهان واتباع الحق والدليل (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون). كما حارب القرآن بناء الأحكام على الشبهات والظنون (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون).

على ضوء هذا المنهج سار صحابة رسول النه صى الله عليه وسلم، فكانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، فهل بعد ذلك يكون التمذهب ضروريا؟ وهنا ينصب السؤال على اختلاف الرأي في المسائل الفقهية ويستطيع الباحث أن يرصد إقرارا لمبدإ الاختلاف بين البشر في طلب القرآن الكريم، الأمر الذي دعا أحد فقهاء الشريعة لأن يقرر بأن (اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى والمؤمن يوقن بأن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة. ووردت إشارات القرآن إلى موضوع الاختلاف بين الناس في الاعتقاد والإيمان إلى مواضع عديدة منها قوله تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) (ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلهم جميعا). وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) وقد تحدث علماء السنة في صحة هذا الحديث الذي تردد بروايات مختلفة وقال عنه (المقبلي) في كتابه (العلم الشامخ) : وحديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة يشد بعضها بعضا بحيث لا تبقى ريبة في حامل معناه.

ويبدوأن هاجس الاختلاف أرق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فظل يسائل نفسه -فيما ينقل عنه- كيف تختلف هذه

الأمة ونبيها واحد؟ ثم أعاد طرح السؤال على عبد الله بن عباس وقال له كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة وكتابها واحد؟ رد ابن عباس قائلا ياأمير المؤمنين إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيما أنزل، إنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يدرون فيما نزل، فيكون لكل قوم فيه رأي، فاذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا فيه، فأذا اختلفوا اقتتلوا. تقول الرواية : ان سيدنا عمر الذي صدمته هذه الصورة فيما يبدو زجر ابن عباس بينما نهره سيدنا علي بن أبي طالب، ثم تضيف أن ابن عباس انصرف ونظر عمر فيما سمعه، فعرف عمر قوله فأعجبه.

وعقب العلامة الشاطبي على هذه الواقعة قائلا إن ما قاله ابن عباس هو الحق فاذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها، فلم يتعد ذلك فيها. وإذا جهل فيما نزلت احتمل النظر فيها أوجها. فذهب كل إنسان فيها مذهبا لا يذهب إليه الآخر وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم الى الصواب، أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات فلم يكن بد من الأخذ ببادئ الرأي أو التأويل بالتخرص الذي لايغني من الحق شيئا إذ لا دليل عليه من الشريعة فضلوا وأضلوا.

.ولقد أثبت إخوان الصفا في رسائلهم بديهة الاختلاف حتى بين أتباع الدين الواحد حيث ذكروا أن الناس تختلف اتجاهاتهم ومشاربهم ومن الطبيعي أن تختلف مواقفهم. إذ القياسات مختلفة الأنواع كثيرة الفنون كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها. مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لاتشبه قياسات الأطباء، وقياس المنجميين لا يشبه قياس النحويين ولا المتكلمين وهكذا.

قالوا أيضا إن اختلاف المدارك من أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب (لأنه اذا اختلفت إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك) وذكر الشيخ محمد أبو زهرة موقف إخوان الصفا في معرض دراسة له قدم بها لكتابه -تاريخ المذاهب الإسلامية- ذكر فيها أسباب عدة لاختلاف المسلمين إلى مذاهب وملل مختلفة كان من بينها :

أ) **العصبية العربية** التي رأى فيها أستاذنا أنها (جوهر الخلاف الذي فرق أمر الأمة). وأن هذه العصبية اختلفت في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده لبعض الوقت ثم ظهرت في آخر عهد الخليفة عثمان بن عفان. وكان انبعاثها له أثره في الاختلاف بين الأمويين والهاشميين أولا. ثم بين الخوارج وغيرهم، حيث كانت القبائل التي انتشر فيها مذهب الخوارج من القبائل الربيعية لامن القبائل المضرية والنزاع بين هؤلاء وأولئك معروف في العصر الجاهلي. فلما جاء الإسلام أخفاه حتى ظهر في نحلة الخوارج.

ب) **التنازع على الخلافة** :وهو ما عولج بحكمة عندما شب بين المهاجرين والأنصار عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه تصاعد بعد ذلك حول الأحق بها : قريش أم أولاد علي؟ أم المسلمون أجمعون؟ مما كان وراء قسمة المسلمين إلى خوارج وشيعة وجماعات أخرى.

ج) **ترجمة الفلسفة التي ظهرت عند اليونان والرومان** : وهو ما أثر في علم الكلام وطبع مجادلات المعتزلة وأهل السنة، التي اعتمدت مجموعة من الآقيسة المنطقية والتعديلات الفلسفية والدراسات العقلية المجردة.

د) **ورود المتشابه في القرآن** بالإضافة إلى الآيات المحكمات، وهو ما أشارت إليه الآية (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء تاويله وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا. وما يذكر إلا أولو الألباب).

هـ) **استنباط الأحكام الشرعية التي تتطلبها مستجدات الحياة :** مما فتح الباب لاختلاف الفقهاء في قواعد الاستنباط وأسانيده وجدلهم الطويل حول المصالح المرسلة وأحاديث الآحاد والقياس والعرف والعادة. ونذكر هنا بأن هذا الاختلاف لم ينشأ من ضعف في العقيدة أو شك في صدق ما يدعو إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بل كان تحريا للحق والرغبة في إصابة قصد الشارع هو بغية جمع المختلفين.

التقريب بين المذاهب

لا نستطيع أن نتجاوز تجربة التقريب بين المذاهب التي شهدتها مصر في الأربعينات، وهي تجربة رائدة أثبتت أن التقريب ممكن وأن الأمر إذا أنيط بعلماء المسلمين دون ضغوط السياسة والساسة فإنهم يستطيعون أن يسهموا في التقريب بين أوصال الأمة الممزقة فكرا على الأقل. لقد شهدت مصر عام 1948م تأليف لجنة للتقريب بين المذاهب الإسلامية ضمت عددا من علماء المسلمين من مختلف البلدان، وكان الحوار الفقهي الجاد والمسؤول سبيلها، وكانوا يجلسون حول مائدة واحدة تدوي بأصوات فيها علم وأدب وفقه، وفيها مع ذلك كله روح الأخوة وذوق المودة والمحبة وزمالة العلم والعرفان، وأصدرت مجلة فصلية كان شعارها (ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون). وكانت أهدافها تنص على العمل على جمع أرباب المذاهب الإسلامية التي باعدت بينهم أراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها والسعي لإزالة ما يكون من نزاع بين طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما.

وقد سئل شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت من أن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة. فأجاب بأن الإسلام لايوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين بل نقول إن لكل مسلم الحق في أن يقلد باديء ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره، ولا حرج عليه في شيء من ذلك. وأضاف قائلا إنه يجب على المسلمين أن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات وقد تبنى الأزهر فكرة التقريب عبر حوار العلماء والبحث عن نقاط الاتفاق في الأصول.

وفي الحقيقة يجب أن تعتبر المذاهب الفقهية مدارس فقهية كانت في يوم من الأيام مجالا خصبا للتجديد والاجتهاد، وتعبيرا أصيلا عن حرية الفكر وإثراء عقل الامة وإغناء الواقع الإسلامي، بما يلبي احتياجاته أولا بأول. ويجب أن نتجه إلى أصل الداء ومنبع الشر وهو التخلف والانحطاط، ونحاول أن نضع التمذهب في إطاره الطبيعي من حيث أنه فكر إسلامي يفيد ويحترم لكنه لايلزم ولا يتعبد به، ونحاول أن نقرب بين المسافات ونقيم الجسور بين أتباع المدارس المختلفة، وأن نزيل ما بين المسلمين من حجب وأشواك وألغام أثخنت جسد الأمة في الماضي والحاضر بجراح عميقة عوقت مسيرتها وألهتها عن التصدي لتحدياتها الحقيقية وقطعت أوصالها في كل حين.

إن التشرذم السياسي حقيقة قائمة، وعالم الإسلام الذي ملأ الأعين في زمن مضى صار اليوم عوالم عديدة، بينها ما بينها، حواجز وحوائل لاحيلة لنا فيها.

ولقد دعا الشيخ محمد أبو زهرة الى محو الطائفية والتقريب بين المذاهب بحيث يلتقي الجميع على محبة الله ورضاه، وتحت ظل كتابه وسنة نبيه الصحيحة والمقررات الإسلامية التي علمت من الدين بالضرورة. وذكر أنه لامانع من

أن تختلف آراؤنا ولكن يكون اختلاف آحاد في منازع علمية ولا يكون اختلاف جماعات وطوائف يجعل الأمة الإسلامية متفرقة متنازعة.

ويجب أن يعلم أن المذاهب الاسلامية تراث علمي للجميع لا لطائفة من الطوائف، فيجب العناية بها لتبقى تراثا خالدا يصور الجهود العلمية للمسلمين. والأمم الأوروبية على اختلاف منازعها القانونية تدرس القانون الروماني والمذاهب القديمة في الشرائع، لأنها ثقافة لابد منها. إن حل أي مشكلة -خصوصا إذا كانت بالحجم والعمق والدقة التي تتوفر لقضية المذهبية- لا بد أن يعتمد هدفا ومنهجا محددا. وغني عن القول إن الدعوة إلى الحل لابد ان تكون مصحوبة برغبة حقيقية وأكيدة في الحل. واذا ثبتت هذه الرغبة فلا بد قبل الدخول في التفاصيل من إعلان الاتفاق على فض الاشتباك بين المذاهب الإسلامية، ووقف الحرب الكلامية المعلنة بين الجميع. و هذا لا يكون إلا عن طريق قنوات رسمية ومؤسسات علمية، منها على سبيل المثال منظمة المؤتمر الإسلامي التي يتبعها مجمع الفقه الإسلامي، و الأزهر، ومجمع البحوث الإسلامية، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية. هذه المؤسسات مطالبة بأن تتحمل مسؤوليتها تجاه الأمة الإسلامية في هذا الميدان، و مطالبة بأن تتبنى الدعوة إلى فض الاشتباك بين المذاهب والفرق والملل الإسلامية، ومطالبة بعد ذلك بأن تخطو خطوة أخرى في اتجاه إجراء الحوار، ومحاولة التقريب بين أتباع هذه المذاهب، ثم توحيد هذه الآراء في اتجاه واحد يحقق وحدة الأمة الإسلامية. ونحن ندعو إلى تكوين لجنة علمية تدير النظر في التراث الفقهي الإسلامي على أسس خمسة هي :

1) تقرير الأحكام المتفق عليها بين فقهاء الإسلام، أي التي لم يثر حولها خلاف.

2) في المسائل المختلف عليها اختلاف تنوع، يؤخذ بجميع الآراء ما دامت ثابتة في الشريعة.

3) في المسائل المختلف عليها اختلاف تضاد، ينظر في دليل كل مذهب ويؤخذ بأقوى الآراء وأرجحها دون تعصب لمذهب.

4) في المسائل التي يصعب ترجيح رأي من الآراء فيها، وتتساوى أدلتها في القوة، يجوز الأخذ برأي أي منها، ويحسن تقديم ما يحقق مصلحة عامة للمسلمين.

5) يترك من الآراء ما ظهر بطلانه أو ضعفه.

ويسمى هذا المذهب مذهب الإسلام القرآني، لأن القرآن هو كتاب الله والإسلام الخالد، وهو شريعة المجتمع، والمصدر الأول للتشريع، وأن الله حفظه من الزيادة والنقص وكل أنواع التحريف وأن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم.

وما وقع من خلاف في القرن الماضي يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية، ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم بل يجمد من الناحية العملية تجميدا تاما وبترك حسابه إلى الله (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون)

ويجب أن يواجه المسلمون مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة وهي كثيرة جدا.

هذه مقترحات قابلة للزيادة والنقصان، وقد رأيت أنها تجمع ولا تفرق، توحد ولا تشتت، والأمر لكم ....

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جهود الأعداء في تمزيق الوحدة الإسلامية

للأستاذ محمد الأمين بن الشيخ بن مزيد

إنني لا أريد بهذا الحديث أن أظلم الأعداء، فالعدل واجب حتى مع هؤلاء : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى)، ولا أريد أن أنسب إلى هؤلاء الأعداء كل سبب من أسباب التفرق بين المسلمين ؛ إنما أريد أن أنسب إليهم ما هو من عملهم قطعا، ولذلك سأقتصر على ذكر جهودهم في إسقاط الخلافة وفي نشر فكرة القومية، وفي إقامة الحدود بين الأمة المسلمة وفي زرع اللائكية في المجتمع المسلم. وسأبين بإذن الله أثر ذلك كله في تمزيق وحدة المسلمين. وقبل ذلك سأتعرض -بإذن الله- لبعض الجهود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين.

وفي البداية أذكر بأن الأخوة الإسلامية مبدأ أصيل من المبادئ الإسلامية تضافرت كل النصوص على تدعيمه وتثبيته وفرض التشريعات التي تخدمه، فالمؤمنون إخوة والعلاقة بينهم علاقة الأعضاء في الجسد الواحد، والتعاون بينهم تعاون اللبنات في البناء المحكم، والصلة بينهم صلة ود وعطف، وصلة تواد وتراحم وتعاطف.

والجيل الأول من المسلمين -وهو خير القرون- جسد هذه الأخوة عمليا فكانت الأخوة العامة وكانت المؤاخاة الخاصة. وقد سجلت سابقة فريدة في التاريخ، حيث حصلت أزمة بسبب قلة المهاجرين الوافدين من مكة إلى المدينة، وليس بسبب كثرتهم، الأمر الذي يعبر عنه لجوء المسلمين إلى الاقتراع لحل الأزمة. ففي صحيح البخاري : «ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة».

وكما حثت النصوص على الأخوة و الوحدة، حذرت من التنازع و الاختلاف والتفرق، و دعت إلى الائتلاف والتحاب والتراحم و التعاطف. و النصوص وافرة في هذا المجال. و نشير هنا إشارة عابرة إلى قول الله تعالى في سورة الأنفال وهو يحث المسلمين على ملازمة أسباب النصر : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. و أطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. و اصبروا إن الله مع الصابرين. ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط).

فبين القرآن أن التنازع سبب في الفشل، فالتنازع والاختلاف سبب من أسباب تأخر النصر، وحوادث التاريخ دالة على ذلك. فما حدث في غزوة أحد كان بسبب المخالفة والتنازع، كما قال القرآن : (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون).

فذكر القرآن أن التنازع والمخالفة كانا سببا في الابتلاء الذي حصل في غزوة أحد، بعد النصر الكاسح الذي أحرزه المسلمون في بداية المعركة. ولست في حاجة إلى سرد حوادث التاريخ الذي أضر فيها التنازع بالمسلمين فيكفي استعراض حال ملوك الطوائف في الأندلس، وما جناه عليهم

التفرق والاختلاف، وإنما أذكر هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر لأصحابه أن التنازع والاختلاف كان سببا في حرمان المسلمين من معرفة ليلة القدر معرفة دقيقة كما في الصحيحين. وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة على أن يجتمعوا على قراءة القرآن ما كانت القلوب مؤتلفة والنفوس صافية، فإذا اختلفوا وتنازعوا فإن عليهم أن يرفعوا الاجتماع إلى أن يتهيأ الجو القرآني المناسب (اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه) رواه البخاري

لقد غرست النصوص الشرعية -إذا- الأخوة الإسلامية بأعمق معانيها، وحذرت من التنازع والافتراق، وأوجدت مجتمعا نموذجيا فريدا في التاريخ كانت قوة الأخوة فيه نابعة من الإيمان. فهل يقف الأعداء يتفرجون أمام وحدة المسلمين وتماسكهم؟ أم يبذلون كل الجهود لتمزيق هذه الوحدة؟

لا شك أن أعداء المسلمين الذين يتربصون بهم الدوائر كثيرون، ولا شك أن لديهم وسائل كثيرة وكبيرة، ولا شك أنهم ماضون في الطريق العدائي للمسلمين. و اقرأوا في هذا المعنى إن شئتم قول الله تعالى (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)، وقوله (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى (إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة)، واقرأوا إن شئتم ما كتبه سيد قطب في ظلال القرآن عن هذه الآية : «ولاشك أن وحدة المسلمين وتماسك بنيانهم ورص صفوفهم سد منيع أمام الأعداء. فلذلك كان لا بد من بذل الجهد من قبل الأعداء لتمزيق هذه الوحدة. وقد بدأ ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على أن تلك الجهود ارتدت خائبة أمام 'المناعة الإيمانية، نذكر من هذه الجهود ما ذكره المفسرون في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) إلى قوله (فأولئك لهم عذاب عظيم).

فقد مر اليهودي شماس بن قيس على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج -بعد أن من الله عليهم بالإسلام، واستنقذهم به من الجاهلية، وألف بين قلوبهم- فغاظه ما رأى وقال : (والله ما لنا معهم -إذا اجتمع ملؤهم- من قرار).

ثم دبر مكيدته الخطيرة وكلف أحد الشباب بالجلوس معهم وتذكيرهم بالأشعار التى سجلت يوم بعاث، وهو يوم من أيام الجاهلية كانت الحرب فيه بين الاوس والخزرج، وانتصر فيه الأوس. وقد أدت هذه الخطة الإجرامية إلى أن يتواثب رجلان من الأوس والخزرج ثم يستدعي كل واحد منهما قبيلته.

غير أن النبي صلى الله عليه وسلم رد الأمور إلى نصابها، وقال كما في تفسير الطبري (1) «يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم من الكفر ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا».

ونلحظ هنا العلاقة بين التفرق والكفر كما نلحظ ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »، وكما نلحظه في قوله صلى الله عليه وسلم «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر». وقد حدثت حادثة عارضة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، يبدو أنها لم تكن بتدبير خارجي، غير أنها كادت تعصف بوحدة المسلمين وتحولهم إلى فريقين : فريق الأنصار وفريق المهاجرين. ومع أن تفرق المسلمين في هذه الحادثة كان تحت لافتة إسلامية أصيلة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم اعتبر ذلك دعوى جاهلية منتنة

روى البخاري (2) عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال : "كنا في غزوة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، وقال الأنصاري يا للانصار، فقال المهاجري يا

للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «ما بال دعوى الجاهلية ؟» قالوا : يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال : دعوها فإنها منتنة.

وهناك قصة ذات دلالة خطيرة : إنها رسالة ملك غسان إلى كعب بن مالك يدعوه إلي الالتحاق بمملكته، ويعرض عليه اللجوء السياسي، وينتهز بذلك فرصة القرار التعزيري الصادر من النبي صلى الله عليه وسلم والقاضي بعدم الكلام مع الثلاثة الذين تخلفوا في غزوة تبوك. وقد اعتبر كعب هذا العرض بلاء، وحرق الرسالة.

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه (3) بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام -ممن قدم بالطعام يبيعه في المدينة- يقول : من يدل على كعب بن مالك؟ قال فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني، فدفع إلي كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا، فقرأته فإذا فيه : "أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك. قال -قلت حين قرأتها- : وهذه أيضا من البلاء فتيامت بها التنور فسجرتها.

ونتجاوز سنوات لنصل إلى المكائد التى دبرها عبد الله بن سبإ لتفريق كلمة المسلمين وتأليبهم على الخليفة الراشد عثمان ابن عفان رضي الله عنه. قال ابن كثير (4) : «قال سيف بن عمر إن سبب تألب الأحزاب على عثمان أن رجلا يقال له عبد الله بن سبإ كان يهوديا فاظهر الإسلام، وسار إلى مصر فأوحى إلى طائفة من الناس كلاما اخترعه من عند نفسه... فافتتن به بشر كثير من أهل مصر وكتبوا إلى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة فتمالؤوا على ذلك وكاتبوا فيه وتواعدوا أن يجتمعوا في الإنكار على عثمان».

ونختصر المسافات الزمنية اختصارا لنصل إلى القرن الرابع عشر الهجري لنجد الأمم تتداعى على المسلمين كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ. قال بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن. فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت»(5).

فلنستعرض بعض الجهد الذي بذل لإسقاط الخلافة الإسلامية والاستيلاء على ممتلكاتها، ورسم الحدود بين أجزائها، وتمزيق الوحدة الإسلامية التي تمثلها الخلافة. ونبدأ من البداية عندما عرض زعيم الصهيونية العالمية «هيرتزل» على السلطان عبد الحميد التخلي عن فلسطين ليجعلها اليهود وطنا لهم، فرفض السلطان عبد الحميد وقال في نهاية رده : «لا أستطيع أبدا أن أعطي أحدا أي جزء منها. ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قسمت الامبراطورية، فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل ؛ إنما لن تقسم إلا على جثتنا». وقد سجل هيرتزل هذا الجواب في يومياته ورأ ى فيه قضاء على كل آماله (6).

وكان لا بد بعد ذلك أن يتعاون كل الأعداء في الداخل والخارج لإسقاط الخلافة التي تقف عقبة في سبيل تنفيذ الأهداف الغربية عموما، والأهداف اليهودية خصوصا.

فثار "الشريف" حسين ضد دولة الخلافة، وتآمر مع الانجليز وسار تحت قيادة وتوجيه لورانس، وانتهت الحرب العالمية الأولى وهزمت دول المحور، وتحطمت الامبراطورية العثمانية، وسلخت عنها ممتلكاتها في مصر وسوريا وفلسطين والعراق بعد أن سلخت عنها ممتلكاتها الأوربية. وكان هذا هو الفصل الأول من المؤامرة، الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي. ومع انتهاء هذا الفصل انتهى دورهم.

أما الفصل الثاني والذي كان يشمل إسقاط الخلافة، وضرب الإسلام، وعزل تركيا عن المسلمين، فقد كان من مهام

مصطفى كمال (7).

ثم كانت معاهدة سيفر التي كانت قضاء على دولة الخلافة ثم كان طرد السلطان عبد الحميد وتعيين وحيد الدين خليفة للمسلمين. وكان صورة بلا حقيقة. ثم تم عقد معاهدة لوزان التي اعترفت فيها الدول الكبرى بسيادة تركيا على ما يعرف حاليا بالجمهورية التركية. وكانت بنود الاتفاق تقتضي :

1- قطع كل صلة بالإسلام.

2- إلغاء الخلافة الإسلامية

3- إخراج أنصار الخلافة الإسلامية.

4- اتخاذ دستور مدني (أي علماني) بدلا من دستور تركيا القديم. (8)

وفجأة أعلن النظام الجمهوري، ولم يبق إلا إلغاء الخلافة الإسلامية، فاستصدر أتاتورك يوم 1922/03/03 قرارا من الجمعية الوطنية بإلغاء الخلافة، وأخرج عبد الحميد وجميع أفراد آل عثمان خارج الحدود، وعاش كمال أتاتورك ينفذ أوامر أسياده الغربيين إلى أن مات وحيدا طريدا سنة 1938م.

وكان إلغاء الخلافة الإسلامية من أكبر الجهود التي بذلها الأعداء لتمزيق وحدة المسلمين، ولكنه ليس الجهد الوحيد.

فقد كان للأعداء دور كبير في نشر فكرة القومية في صفوف المسلمين، هذه الفكرة التى تستبعد الرباط الإيماني لتحل محله الرباط العرقي، وذلك في سبيل كسب ثلة من المسيحيين بينت الأيام أنهم لن يعطوا ولاءهم للمسلمين، حتى ولو تنكر المسلمون لدينهم في سبيل إرضائهم. والمثل الماروني في لبنان حاضر في الأذهان.

وقد بدأت فكرة القومية في نصارى العرب حتى وصل الامر إلى حزب البعث العربي الاشتراكي الذي نشأ متأخرا، وكان مؤسسه ميشل عفلق المعروف.

يقول جورج أنطونيوس «يرجع أول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى سنة 1875م حين ألف خمسة شبان، من الذين درسوا في الكلية البروتستنتية السورية ببيروت، جمعية سرية. وكانوا جميعا نصارى، ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم، فاستطاعوا أن يضموا إلى الجمعية 22 شخصا ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية، ويمثلون الصفوة المختارة المستنيرة في البلاد. وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها أوربا، فاستطاع مؤسسو الجمعية السرية عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسوني » (9).

وعلى هذا الأساس القومي ثار "الشريف" حسين يوم الاثنين 5 حزيران 1916م، فقد استطاع الانجليز أن يقنعوه بأن يثور ضد الدولة العثمانية، ووعدوه -إن أعلن ثورته وانتصر الحلفاء- بأن يعطوه ملك العرب. وبالفعل فقد أنشأ جيشا بزعامة ابنه فيصل بن الحسين وقيادة لورانس، وتحرك الجيش تحت الشعار الذي أعلنه فيصل بن الحسين حين قال : نحن عرب قبل أن نكون مسلمين (10).

لقد أراد القوميون القومية بديلا عن الدين، فاستبعدوا الدين الكامل الشامل وتبنوا مبدأ بلا مضمون، وحشوه بخليط من المبادىء العلمانية لأنه لا يقتضي شيئا ولا يناقض شيئا.

وقد لعبت القومية أدوارا مخربة في العالم الإسلامي، وكانت وراء كوارث لا حصر لها. ولا تزال تلعب دورها المرسوم في التفريق والتمزيق، وقد أحسن شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال عندما قال : «حطموا أصنام الألوان والعناصر والأجناس وانصهروا في بوتقة الإسلام حتى لا يبقى هناك توراني أو إيراني أو أفغاني، فإن هذه الأصنام من اللون والجنس والعنصر والثقافة والحضارة سوف تفعل فعلها وتعطي تأثيرها الذي يؤدي بهذه البلاد إلى ما تقشعر منه الجلود وتشيب لهوله الولدان » (11).

لا أريد أن أتجاوز هذا الموضوع حتى أقرر أن إنشاء الجامعة العربية كان اقتراحا بريطانيا يراد به قطع الصلة على الجامعة الإسلامية. فقد اقترحه وزير خارجية بريطانيا "أيدن" على مجموعة من الدول العربية، وتم الاتفاق، وكانت الجامعة العربية. كما لا أتجاوز حتى أقرر أن "دو غلاس هرد" -ودائما مع وزير خارجية بريطانيا- كان قد اقترح إنشاء مجلس تعاون خليجي بدعم غربي، ليقوم باحتواء القومية العربية والأصولية الإسلامية (12).

أنتقل بعد ذلك إلى جهد آخر في سبيل تمزيق المسلمين وهو رسم الحدود بين أجزاء الأمة الإسلامية من قبل الدول الاستعمارية الغاصبة، وإضفاء الشرعية على هذه الحدود بالقانون الدولي، واعتبار تحدي هذه الحدود جريمة لا تغتفر. وقد حقق الأعداء من هذه الحدود مكاسب كبيرة : فترسخت الفرقة في دولة الاستقلال التي خدعها الأعداء بالمظاهر الشكلية الفارغة : الدستور والنشيد الوطني والجيش الذي يحمي هذه الحدود الموروثة عن الاستعمار.

وأصبحت الوحدة بين هذه الدول المجزأة من قبيل المحال، لأن الأعداء يحمون هذه الفرقة بالوسائل الدبلوماسية والعسكرية، في الوقت الذي تسعى فيه الدول الأوربية إلى الوحدة، وتطمح إلى يوم تلغى فيه هذه الحدود.

وقد أدرك الكاتب الإسلامي الشهير منير شفيق ما ترمي إليه هذه الحدود من أهداف مخربة، وعبر عنها أحسن تعبير فقال : (13)

«إنها التجزئة المؤدية إلى إقامة الحدود الدولية فيما بين أجزاء الأمة الواحدة، وسن قانون للجنسية في كل جزء، تماما كما هو الحال فيما بين الدول القومية، وإقامة دولة حديثة من الطراز الغربي داخل كل جزء، بحيث يصبح مع مضي الأيام جسما غريبا عن أشقائه، بحيث تتكون في داخله مع الأيام أنظمة وقوانين خاصة به، وتنشأ فئات ذات مصلحة في بقاء الكيان وإدامته، ويقوم الاقتصاد ولو مشوها على أساس الكيان باعتباره دولة قائمة بذاتها، وتنشأ أفكار وعقلية و «وطنية» خاصة بالكيان، ويعبر شعب كل كيان تجربة تاريخية في الصراع مع الاستعمار بعيدا عن مسار أشقائه

وتنشأ زعاماته وأحزابه وجرائده وحركاته الخاصة به، وبهذا لا يبقى فعل التجربة فعلا قسريا تفرضه حراب المستعمر، وإنما تصبح واقعا تكوينيا موضوعيا، له مؤسساته الموضوعية والذاتية، وله بناه التحتية والأفقية وما إلى هناك..

وبهذا تنشأ دول ووطنيات وأمم يصبح أقصى الأمنيات معها أن تتضامن وتنسق فيما بينها، أو أن تقيم سوقا مشتركة أو بعض المشاريع الاقتصادية المشتركة، أو تخفف من إجراءات الجمارك وتأشيرات الدخول فيما بينها، بل قد تصبح أقصى الأمنيات أن لا تشتبك فيما بينها بصراعات تضع بأسها فيها».

نصل بعد ذلك إلى وسيلة خطيرة من وسائل تمزيق وحدة المسلمين وهي زرع «اللائكية» التي ترجمها المترجمون خطأ بالعلمانية، ولا صلة لها من قريب ولا من بعيد بالعلم. ويعني هذا المصطلح فصل الدين عن الحياة فلا صلة للدين بالسياسة ولا صلة له بالاقتصاد ولا صلة له بالثقافة ولا صلة له بالاجتماع بل لا صلة له بالأخلاق. فكانت النتيجة أن انتقلت إلى الأرض الإسلامية كل المدارس الغربية. وكان لكل مدرسة حواريون يؤمنون بمبادئها، ويدعون لها ويجاهدون في سبيل تحقيقها. وكان لكل مدرسة كسبها من مجتمع المسلمين الوحدوي فآلت الوحدة إلى افتراق، والألفة إلى اختلاف. وتمزق المجتمع المسلم بسبب شجرة اللادينية الخبيثة التي لاتثمر إلا الشر. وتكفي نظرة عابرة على الأحزاب السياسية اللادينية والجمعيات السرية والعلنية المشبوهة والنوادي المستغربة المنتشرة في الأرض الإسلامية من المحيط إلى المحيط، لنرى إلى أي مدى استطاع

الأعداء تمزيق الوحدة الإسلامية.

وبعد فهل يمكن أن يتوب المسلمون من فرقتهم، ويمتثلوا أمر ربهم، ويوحدوا كلمتهم ليعود لهم مجدهم وعزهم، ولترجع إليهم شوكتهم وقوتهم؟

الرئيس الامريكي السابق «نكسون»، في كتابه "الفرصة السانحة" الصادر في النصف الثاني من العام الماضي 1991م، يجيب بالنفي، ويطمئن المنزعجين والخائفين من هذه الوحدة بأنها لن تتحقق ويقول (14) : «يحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبولتيكية متطرفة، وإنه مع التزايد السكاني والإمكانات المتاحة، سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي. ويزيد هذا الرأي بأن الإسلام والغرب متضادان، وأن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين: «دار الإسلام» و«دار الحرب» حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية، وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفيتي ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة.»

ثم يقول : إن هذا الكابوس المخيف لن يتحقق، فإن المسلمين من الكثرة والاختلاف بشكل لا يسمح لهم بأن يكونوا كتلة واحدة.

هذا ما يراه نكسون .

أما نحن فنرى أن عوامل الوحدة وافرة وأصيلة، وأن الفرقة عارضة وعلى مستوى الأنظمة الموالية لليهود والنصارى فقط.

أما على مستوى الشعوب الإسلامية، فالوحدة قائمة يحس بذلك من ساح في البلاد الإسلامية من انواكشوط إلى جاكرتا وأن العودة إلى الإسلام جادة ومتنامية، وأن هناك تلازما بين العودة إلى الإسلام والوحدة. وعلى عكس ما يحلم به نكسون، فنحن واثقون من أن هذه الفرقة المصطنعة لن تدوم، وأن المستقبل للإسلام والوحدة الإسلامية.

الهوامش

1) جامع البيان في تفسير القرآن، ج 4 ص 16. طبعة بولاق.

2) صحيح البخاري في كتاب التفسير في سورة المنافقون.

3) صحيح البخاري و مسلم في كتاب التوبة.

4) البداية و النهاية ج 7 ص 167. طبعة دار الفكر.

5) سنن أبي داود في كتاب الفتن، باب تداعي الأمم على الإسلام.

6) مصطفى الطحان : الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا. ص 65-67. طبعة ألمانيا.

7) الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا. ص 85.

8) المرجع السابق ص 105-106.

9) صالح عبد الله العبود : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام. ص 93.

10) الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا. ص 83-84.

11) أبو الحسن الندوي : الطريق إلى السعادة و القيادة. ص54. مؤسسة الرسالة.

12) مجلة السنة، العدد 13، ص 72.

13) الإسلام و تحديات الانحطاط المعاصرة. ص 85. الزهراء للإعلام العربي.

14) الفرصة السانحة. ص 135. نشر دار الهلال.

ذات النطاقين

أسماء بنت أبي بكر

الأستاذ أحمد البدوي

هي أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عثمان بن عامر ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر القرشي التيمي. يلتقي نسبها مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في مرة بن كعب.

تربت طوافة بين بيت والدها الصديق (رضي الله عنه) وبيت النبوة حيث أختها أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها). كانت كثيرا ما ترى رسول الله صلى الله عليه و سلم في بيته. وذات يوم بلغ إلى علم الرسول صلى الله عليه و سلم أنها بلغت سن الرشد، فقال لها : يا أسماء، إن البنت إذا بلغت، لا يرى منها إلا هذا و هذا (و أشار إلى الوجه و الكفين). (1)

أهلتها نشأتها في هذا الوسط الطاهر الصالح لحمل الرسالة، بفضل علمها و مواقفها الثابتة. إذ كانت من رواة حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم : روى عنها قوم منهم قيس بن أبي حازم الكوفي، و هو من طبقة التابعين و ممن شهدوا القادسية، و فاطمة بنت المنذر بن الزبير زوج هشام بن عروة ابن الزبير. و أخذ عنها التابعي الجليل سعيد بن المسيب أسرار تأويل الرؤيا، فقد ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد أن "سعيد بن المسيب كان من أعبر الناس للرؤيا، و كان أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر، و أخذته أسماء عن أبيها أبي بكر (رضي الله عنهم أجمعين). (2)

تزوجت بالصحابي الفارس الزبير بن العوام، فولدت له : عبد الله، و عروة، و المنذر، و عاصم، و المهاجر، و خديجة الكبرى، و أم الحسن، و عائشة. و كان أولادها الثلاثة الأوائل من رواة أحاديث رسول الله صلى الله عليه و سلم : "و البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه." (صدق الله العظيم).

و يذكر تاريخ الإسلام لهذه الصالحة موقفين عظيمين : الأول مع قائد الدعوة الإسلامية الأول محمد صلى الله عليه وسلم، و الثاني مع ولدها المجاهد عبد الله.

حول الموقف الأول، و تسميتها بذات النطاقين، قال صاحب الطبقات فيما يرويه عن هشام بن عروة عن أبيه، قال : "قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لأبي بكر : قد أمرت بالخروج (يعني الهجرة). فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله. قال : لك الصحبة. قال فخرجا حتى أتيا ثورا فاختبآ فيه. فكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بخبر أهل مكة بالليل، ثم يصبح بين أظهرهم كأنه بات بها. و كان عامر بن فهيرة يرعى غنما لأبي بكر فكان يريحها عليهما فيشربان من اللبن. و كانت أسماء تجعل طعاما فتبعث به إليهما، فجعلت طعاما في سفرة فلم تجد شيئا تربطها به، فقطعت نطاقها فربطتها به فسميت ذات

النطاقين." (3). و يضيف صاحب الطبقات -في رواية أخرى- قائلا : "و كانت لأبي بكر منيحة غنم يرعاها عامر بن فهيرة. و كان يأتيهم بها ليلا فيتحلبون، فإذا كان سحر سرح مع الناس. قالت عائشة : و جهزناهما أحب الجهاز، و صنعنا لهما سفرة من جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فأوكت بها الجراب، و قطعت أخرى فصيرته عصاما لفم القربة. فبذلك سميت ذات النطاقين." (4)

و قد كانت نتيجة لذلك ذات دور فعال في هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم و تأسيس الدولة الإسلامية. و لم ينس لها عمر بن الخطاب ذلك، فجعلها في طليعة أصحاب الأعطيات. قال ابن سعد : "و فرض للمهاجرات الأول : أسماء بنت عميس، و أسماء بنت أبي بكر، و أم عبد، و أم عبد الله بن مسعود، ألفا ألفا." (5)

عاشت أسماء في ظلال منهاج النبوة و الخلافة الراشدة، فتشبعت بمعاني العدل و الشورى... و لما بدأت رياح الكسروية (6) تهب على الأمة كانت أسماء مع ابنها عبد الله في طليعة المعارضين لهذا الانحراف الخطير. قال ابن عماد الحنبلي في أحداث سنة 73 للهجرة : "فيها نازل الحجاج بن الزبير، فحاصره، و نصب المنجنيق على أبي قبيس، و دام القتال أشهرا، و تفرق عن عبد الله أصحابه، فأخبر أمه بذلك، و استشارها فقالت : يا بني، إن كنت قاتلت لغير الله فقد هلكت و أهلكت، و إن كان لله فلا تسلم نفسك. فقاتلهم ولم يزل يهزمهم عند كل باب حتى أصابته رمية في رأسه، فنكس رأسه و هو يقول :

و لسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

و لكن على أقدامنا تقطر الدما

و دخل الحجاج على أمه بعد قتله، فقال : كيف رأيتني صنعت بابنك؟ فقالت : أفسدت عليه دنياه، و أفسد عليك آخرتك. و قد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم أن في ثقيف مبيرا و كذابا، فأما الكذاب فرأيناه، يعني المختار، و أما المبير فلا أخالك إلا إياه... وقد توفيت أسماء رضي الله عنها بعد مصاب ابنها بيسير و هي في عشر المائة. و هي من المهاجرات الأول، و من أهل السوابق في الإسلام، و هي ذات النطاقين رضي الله عنها. (7)

و كان من دعائها لولدها الصابر الصامد : "اللهم ارحم طول قيامه في الليل، و ظمأه في الهواجر، و بره بأبيه و بي... اللهم إني أسلمته لأمرك فيه، و رضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله بن الزبير ثواب الصابرين الشاكرين."

بعد استشهاد ابنها، تقدم منها عبد الله بن عمر معزيا و داعيا إياها إلى الصبر، فأجابته قائلة : "و ماذا يعنيني من الصبر و قد أهدي رأس يحي بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل!"

يا لعظمتك يا ابنة الصديق! أهناك كلمات أروع من هذه تقال للذين فصلوا رأس عبد الله بن الزبير عن جسده قبل أن يصلبوه؟؟ (8)

أجل، إن يكن رأس ابن الزبير رضي الله عنه قد قدم هدية للحجاج و لعبد الملك، فإن رأس نبي كريم هو يحي عليه الصلاة و السلام قد قدم من قبل هدية ل«سالومي»، بغي حقيرة من بني يهود. ما أروع التشبيه و ما أصدق الكلمات و ما أقوى هذه الشخصية! إن أسماء بمواقفها المبدئية في الهجرة، و في وجه المنحرفين عن مسيرة الهجرة تبين لنا أن أصحاب الحق أمام حالتين :

- إعلان الحق و الشهادة.
- أو إعلانه و النصر.

و على هذا الأساس لم و لن ينكسر صاحب حق، وأسماء إذ ترافق ابنها حتى موقع الاستشهاد و سقوط الراية من يديه،

تحقق جزءا أساسيا من الهدف، و هو: إعلان الحق و الوقوف إلى جانبه... و بذلك الإعلان يوضع الباطل موضع الاستفهام والشك و تخدش كبرياؤه، و تزلزل قواعده، و تعرى مفاسده و عوراته.

تلكم أسماء بنت الصديق، كانت لشدة حبها لرسول الله صلى الله عليه و سلم تحتفظ بجبته تبركا بها. فعن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله مولى أسماء، قال : "أخرجت إلينا أسماء جبة من طيالسة لها لبنة شبر من ديباج كسرواني، وفروجها مكفوفة به، فقالت : هذه جبة رسول الله صلى الله عليه و سلم، كانت عند عائشة، فلما توفيت عائشة رضي الله عنها قبضتها، فنحن نغسلها للمريض منا إذا اشتكى." (9)

سلام عليها في الغابرين، مع النبيئين و الصديقين و الشهداء و الصالحين، و سلام على ابنها الشهيد و سائر عباد الله الصالحين في كل زمان و مكان.

الهوامش

1) ورد هذا النص في كتاب "الحجاب" (ص 273) للإمام أبي الأعلى المودودي بالطريقة التالية : "وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أخت زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فدخلت عليه ذات مرة في لباس رقيق يشف عن جسمها، فأعرض النبي عنها، و قال : "يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا و هذا، و أشار إلى وجهه و كفه." (رواه أبو داود مرسلا).

2) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 5 ص 124.

3) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 3 ص 172-173.

4) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 1 ص 299.

5) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 3 ص 304.

6) تلك الكسروية التي عبر عن طغيانها سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بقوله : "الحجاج بالعراق، و الوليد بالشام، و قرة (ابن شرك) بمصر، و عثمان (ابن حيان) بالمدينة، و خالد (ابن عبد الله القسري) بمكة، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما و جورا، فأرح الناس." (ابن الأثير ج 4 ص 132). و ماذا كان سيقول الخليفة الراشد الخامس -لو كان بيننا الآن- عن هزيمة يونيو 1967 الكبرى، و غزو لبنان سنة 1982، و حرب الخليج الأولى و الثانية، و كوارث كشمير والصومال و البوسنة و الهرسك و كوسوفو وجنوب الفيليبين، وغياب الحد الأدنى من الحريات العامة و استئساد غلمان العلمانية، و وصول الاختراق التغريبي إلى جميع محاور ومربعات الحياة الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية...؟

7) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج 1 ص 79-80.

8) عن "رجال حول الرسول" لخالد محمد خالد ص 567.

9) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 1 ص 454.

أمـهـات من العـجـائب تـتـرى	خـالدات على مـر العـهـود
مـثـلا كن رائـعـات جـهـادا	مـثـلا كن عند فك القـيـود
مـثـلا في العـفـاف و الطهـر حـقـا	مـثـلا كن عند بذل الجـهـود
قـد صنعن الرجـال يوم استـكانت	أمم الأرض و اكـتـفـت بالقـعـود
قـد بنين النفـوس يوم تهـاوت	أنفس الناس في انتكاس شـديد
و أضـأن الوجـود يوم ادلهـمت	ظلم الجـهـل تحت نيـر الجـمـود
راجـعي الأمـهـات هذا قليل	راجـعيـهـن تظفـري بالمزيد

للشاعر باب ولد احمدو

فريد الأنصاري

عضو رابطة الأدب الاسلامي
العالمية

ديوان القصائد

«الجزء الأول»

مطبوعات الأفق الدار البيضاء
39.17.53/ 39.86.05

د . أحمد العماري
أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة فاس المغرب

المواجهة و المراجعة
فـــي
سياق قانون الحركة التاريخية
للجامعتين الإسلامية والاتينية
وعلاقتها بقانون التطور
الحديث و المعاصر

مبحث في مفهوم
القوة و تطوره

مساهمة في الوعي التاريخي و محاولة اكتشاف قانون التطور
ملحق الهدى - سلسلة افكار - 1 -

إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

ملحمة
البوسنة والهرسك
الجريمة الكبرى

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ-١٩٩٣م
دار النحوي للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المشكاة

العدد 14 السنة 4 أبريل ، ماى ، يونيه 1991 ، رمضان ، شوال ، ذى القعدة 1411 الرقم الدولى ISSN - 0851 - 0547

من مواضيع العدد